

قراصنة المحيط الأطلسي

قراصنة المحيط الأطلسي

أحمد بوشارب





ارتبطت القرصنة أو الجهاد البحري في أذهاننا بمدينة « سلا » وبالقرن السابع عشر، حتى إن الكثير منا يحصر ذلك النشاط في المدينة والقرن المذكورين.

والواقع أن ذلك التصور، وإن كان له ما يبرره نظرا لما حققته القرصنة "السلاوية" آنذاك من إشعاع، تكون بسبب سكوت الدراسات التاريخية عن النشاط البحري في مدن مغربية أخرى خلال فترات سابقة، وبسبب العناية الخاصة التي أولتها تلك الدراسات للقرصنة "السلاوية" نظرا لوفرة المادة العلمية الخاصة بها.

انطلق بعض مؤرخي فترة الحماية من فكرة مسبقة برروا بها المكتسبات والمنجزات التي تحققت للسلاويين. فقد ربطوا بين ازدهار النشاط الجهادي القرصني بمصب أبي رقراق واستقرار جالية أجنبية بمدنه في مطلع القرن السابع عشر، واعتبروا أن ذلك الازدهار ما كان ليتحقق لولا أولئك الأجانب، ونفوا عن « الأهالي » كل اهتمام بالأنشطة البحرية.

وسنعمل من خلال هذه الدراسة على تصحيح ذلك الاستنتاج المتسرع، وعلى إعطاء فكرة عن دواعي انطلاق عمليات الجهاد البحري بالسواحل المغربية، قبل تحديد أسباب ومراحل تفوق مدينة "الرباط" التي تسميها المصادر الأوروبية "سلا الجديدة" على باقي المرافئ المغربية.

حقيقة أنه يصعب التمييز بكل وضوح بين القرصنة والجهاد البحري، خصوصا وأن ذلك النشاط هم عناصر مختلفة تنتمي إلى أمم وشعوب مختلفة، كان كثير منها حديث العهد بالإسلام أو كان لا يزال متمسكا بدينه الأصلي. لذا سنوظف في نفس الوقت، وعلى غرار ما قام به مؤرخونا الذين تعرضوا للموضوع، لفظي القرصنة والجهاد البحري حين حديثنا عن أنشطة "السلاويين"، وذلك على الرغم من إيلائنا العامل الديني الأهمية التي يستحقها، على الأقل على مستوى العوامل والدوافع المصرح بها.

لقد كانت القرصنة منحصرة خلال القرون الوسطى في الأبيض المتوسط، إلا أنها سرعان ما نقلت عملياتها إلى المحيط الأطلنطي، الأمر الذي أفاد الموانئ المغربية بجعله مدن سلا والعرائش والمعمورة محادية لأهم الطرق التجارية الدولية الجديدة.

إدريس بن صاري



بــدايــة الجــهــاد البــحري فــي المــغــرب

أ - انطلاق العمليات الجهادية البحرية بالمغرب

في الوقت الذي كان المحيط لا يزال مجرد " بحر ظلمات " ، كانت القرصنة الأوروبية تعيث في سواحل المغرب العربي فسادا. وقد سجلت لنا بعض كتب التراجم والمناقب المغربية أصداء ذلك النشاط الذي امتد ليصل على الأقل خلال إحدى الهجمات المباغتة ضواحي مدينة الجديدة الحالية. وقد أسهم ذلك النشاط في إخلاء بعض الجهات الساحلية المغربية، وفي تراجع الأنشطة البحرية بها.

إلا أن المغاربة سرعان ما أصبحوا يردون بالمثل، وأضحت بعض السواحل تأوي نشاطا جهاديا منتظما ألحق أضرارا بليغة بالسواحل الإيبيرية، وبالتجارة المسيحية بالحوض الغربي للأبيض المتوسط. وقد رد الإيبيريون، الذين كانوا أكبر المتضررين، على تلك الهجمات باحتلال أنشط الموانئ الجهادية بالمغرب العربي من طنجة إلى طرابلس الغرب.

ويعود تزايد النشاط الجهادي بالسواحل المغربية إلى تداخل عدة عوامل أهمها:

1 الأزمة الاقتصادية التي عمت البلاد إثر وباء الطاعون الأسود (بعد 1348)، وتراجع الاستفادة من تجارة القوافل، وضعف السلطة المركزية بعد اغتيال أبي عنان(1358) .

2 نزوح جاليات أندلسية إلى سواحل المغرب العربي في مرحلة أولى، وعلوج جذبتهم الرواتب العليا والامتيازات المهمة التي كانوا يستفيدون منها في مرحلة ثانية.

3 احتلال عدد من الثغور المغربية بعد سنة 1415، الأمر الذي جعل المغاربة يتبنون الجهاد البحري للإسراع بتحرير تلك الثغور.

كان البرتغاليون سباقين إلى الاهتمام بالسواحل المغربية التي احتلوا منها سبتة منذ سنة 1415. إلا أن الإسبان سرعان ما بدوا كمزاحمين ومنافسين لجيرانهم وأصروا على أخذ نصيبهم منه بدعوى حقوق تاريخية سابقة. وهكذا اضطرت الدولتان إلى الالتجاء إلى الفاتيكان الذي حدد مناطق نفوذهما بالمغرب العربي. ونتج عن اتفاقهما اكتساح جل سواحل المغرب العربي من جهة، وإنشاء إمبراطوريتين شاسعتين من جهة ثانية.

واعتمد الإيبيريون في عملهم ذاك على ثلاثة عناصر أساسية مكنتهم خلال القرنين الخامس عشر والقرن التالي من سبق أكيد على باقي الدول الأوروبية. فقد اعتمدوا على دولة وطنية قوية تبنت التوسع وخططت له ومولته واحتكرت فوائده، وجيش وأسطول حربي عصريين متفوقين في استخدام السلاح الناري، واعتمدوا أخيرا على سيطرتهم المطلقة على البحار والمحيطات بسبب الخبرة التي اكتسبها بحارتهم من اقتحامهم للمحيط منذ مطلع القرن الخامس عشر.

كان الإسبان والبرتغاليون يتوخون من غزو سواحل المغرب، وخصوصا من قسمها الشمالي، إبعاد المغاربة عن البحر وحرمانهم من استعماله، حماية لبلادهم وتجارتهم. وقد اعتقد بعض المؤرخين أنهم نجحوا في ذلك. إلا المصادر التي اعتمدناها، وهي برتغالية ، تنفي ذلك الادعاء، وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المغاربة، وحتى خلال ضعف السلطة المركزية، ركبوا البحر في إطار ردهم على هجمات المسيحيين، وأنهم انطلقوا من موانئ العرائش وتطوان وسلا وبادس لمطاردة السفن الإيبيرية، ولنهب سواحل جنوبي إسبانيا والبرتغال.



لقد خصص الإخباري البرتغالي «دو كويش» D. de Góis أربعة فصول من مؤلفه لهجمات ناجحة قام بها مجاهدو العرائش وتطوان فيما بين 1516و1521 ضد سفن برتغالية. ففي التاريخ الأول، أسر مجاهدو العرائش "كرفيلا" برتغالية قبل دخولها ميناء أصيلا، وكان على متنها ثمانية وعشرون نفرا من الجنسين، كما كان ضمنهم بعض النبلاء. وخلال نفس السنة، تمكن مجاهدو تطوان من أسر سفينة برتغالية أخرى. وأشار نفس المؤلف ضمن أحداث سنة 1520 إلى الأدوار الطلائعية في ميدان الجهاد البحري التي قام بها أخوان من تطوان أسماهما Xacros، كان لكل منهما مركب خاص. فقد ذكر أنهما ألحقا لمدة أربع سنوات متتالية أضرارا بليغة بالمنطقة الممتدة بين سبتة والعرائش وجبل طارق، وهو ما جعل المؤلف يعترف بأن «المسلمين (المغاربة) كانوا حاذقين في أمور البحر».

وأضاف الإخباري المذكور أن تلك العمليات الجهادية التي كانت تنطلق من تطوان دفعت الملك البرتغالي إلى التفكير في إغلاق مصب نهر مرتيل. وبما أنه تردد في ذلك، فقد حثه العاهل الإسباني على تنفيذ ذلك المشروع وتشييد قلعة بالمصب في رسالة مؤرخة في 5 ماي 1520 أورد المؤلف محتواها: «... ألح عليه بأن يشيد حصنا في أقرب الآجال للدفاع عن المسيحية وحماية ممالكها بذلك المصب لجعل حد للأضرار والخسائر التي كان مسلمو تلك الجهة يسببونها اعتمادا على مراكبهم وسفنهم فيما بين الساحل والمضيق، وفي غيرهما من الأماكن...». كما ذكر أن العاهل الإسباني طلب من الملك البرتغالي السماح له في حالة تعذر البناء عليه، بإنجازه وتحمل مصاريفه.

وأشار إخباري برتغالي آخر، هو لويش دو سوزا (Luís de Sousa)، إلى الحروب البحرية التي دارت بين مجاهدين من تطوان والعرائش من جهة، والأسطول البرتغالي المكلف بمراقبة المضيق من جهة ثانية. ومعلوم أن إرسال ذلك الأسطول إلى تلك المنطقة كان نتيجة مباشرة لتزايد النشاط الجهادي المغربي والتركي. فقد ذكر ضمن أحداث 1529 معركة بحرية وقعت خلال شهر أكتوبر بين مركب تطواني وآخر برتغالي كان متوجها إلى مدينة أصيلا.
وأشار نفس الإخباري كذلك إلى صدام آخر بين ثلاثة مراكب من بادس وقطعة من الأسطول البرتغالي المكلف بحماية المضيق.
ومما لا شك فيه أن الإخباريين لم يذكرا كل المعارك البحرية بين المغاربة والإيبيريين، وأنهما، كغيرهما من المسيحيين، كانا يعمدان إلى التقليل من أهمية الانتصارات الإسلامية، أو يحجمان عن ذكرها.

وتضيف محاضر محاكم التفتيش البرتغالية التي وظفناها إلى ما سبق حقيقة بالغة الأهمية: لم يقتصر هذا النوع من الجهاد على سكان المدن الساحلية ذوي العادات والخبرات البحرية، بل شمل كذلك أشخاصا ينتمون إلى مناطق داخلية كضواحي القصر الكبير أو مراكش أو تارودانت أو فاس. وبذلك يكون البدو والحضر، المستقرون والرحل، قد أسهموا في ذلك المجهود الوطني الذي صاحب وآزر الجهاد البري الذي أصبح الرأي العام، المؤطر من لدن الفقهاء والمتصوفة، يوليه أهمية خاصة.





وسرعان ما انتقلت العمليات الجهادية إلى السواحل الأطلنطية، ذلك أن نشاط أنفا ضايق في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر الملاحة البرتغالية، وأرغم الملك يوحنا الثاني على تنظيم هجوم عليها سنة 1465 انتهى بتحيطم أسوارها وتخريب عمرانها. ومما لا شك فيه أن التحول المذكور تم بعد تزايد الإقبال على الطريق البحرية الجديدة، بعد تنظيم التجارة بغرب إفريقيا واستيطان الجزر الخالدات.

لم يترك احتلال جل الثغور المغربية من قبل الإسبان والبرتغاليين للمجاهدين البحريين والقراصنة إلا بعض المرافئ الموجودة بمصبات الأنهار كالمعمورة والعرائش وسلا. وسرعان ما أضحت المدينتان الأخيرتان مركزي قرصنة نشطة، وأصبحتا محج السفن والمراكب التركية التي سرعان ما نقلت بدورها عملياتها إلى المحيط. فقد اتخذ قراصنة الجزائر من العرائش أولا، ثم من سلا فيما بعد، مركزين للتزود بالمؤونة وللاحتماء بهما في حالة مطاردة الأساطيل الأوروبية لهم. وقد أكد الإخباري B.Rodrigues ،الذي عاش طويلا بأصيلا، على الأضرار التي ألحقها القراصنة المغاربة والأتراك بالملاحة والسواحل البرتغالية بعد إخلاء تلك المدينة سنة 1550.

ويشهد الاستقرار المتزايد للقراصنة الأتراك في تلك المرافئ المغربية على تحول النشاط القرصني التدريجي نحو المحيط. فقد انتهى المطاف بعدد من العلوج الى العرائش أو سلا بعد أن عملوا بالجزائر ثم ببادس وتطوان. وسنرى ذلك من خلال مسار علج جنوي الأصل مثل أمام محكمة تفتيش لشبونة إثر أسره سنة 1550بعد هجوم فاشل على جنوب البرتغال انطلاقا من مدينة سلا.

ب-قراصنة ومجاهدو النصف الأول من القرن السادس عشر

أشار الإخباري البرتغاليL. de Sousa إلى أن صيادا برتغاليا فر من أصيلا والتحق بالقصر الكبير حيث أسلم ووضع نفسه في خدمة قائدها الذي كان نفوذه يشمل مدينة العرائش. وقد أرسله القائد المذكور إلى ذلك الميناء ليرأس أسطولا كان في ملكيته، كان يعمل به بحارة مغاربة وأتراك وعلوج. وسرد الإخباري المذكور ما ألحقه ذلك العلج من خسائر بجنوب إسبانيا والبرتغال. فقد نزل يوما بشاطئ مدينة (فارو) البرتغالية وأسر ستين نفرا. وفي طريقه إلى العرائش، استولى على سفينة كانت عائدة من الرأس الأخضر محملة قطنا وعاجا، وكان على متنها عشرون شخصا. وهاجم مرة أخرى منطقة (سان لوكار) ودخل الوادي الكبير في اتجاه إشبيلية، الأمر الذي «... أرغم الملك يوحنا على إرسال أسطول... لحماية المضيق وطرد أولئك القراصنة، وإرغامهم على الأنسحاب إلى قواعدهم».

وأشار نفس الإخباري إلى استيلاء مجاهدي سلا على سفينة برتغالية. وعلى ذكر سلا، نشير إلى أن محضرا من محاضر محاكم التفتيش يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن نشاطها الجهادي لا يعود إلى استقرار المورسكيين بمصب أبي رقراق في بداية القرن السابع عشر، بل إلى العقود الأولى من القرن السادس عشر. فقد كان في ملكية قائدها عدد من المراكب، كان جل رؤسائها من الأتراك والعلوج. فمن خلال محضر محاكمة البحار الجنوي الأصل السابق الذكر، والذي اعتقل في صيف 1550، نطلع على أصول أولئك القراصنة، وهوية ملاكي المراكب القرصنية، ونطاق عملها خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ويطلعنا المحضر كذلك على نوعية الغنائم والطرق المعتمدة للحصول عليها. والمحضر محفوظ بالأرشيف الوطني-Arquivo Nacional da Torre do Tombo، ضمن محاضر محكمة تفتيش لشبونة، تحت عدد: Inquisição de Lisboa, processo n°8481. وهو يضم أربعا وعشرين ورقة.

يفهم من استنطاق المتهم أنه جنوي الأصل، كان يسمى (Vicente)، وكان عمره حين



اعتقاله بالبرتغال دون الثلاثين. وقد أسرته أربعة مراكب تركية قبالة قرطاجنة، بالساحل الشرقي الإسباني، واقتادته إلى الجزائر، وعمره آنذاك يتراوح بين السادسة عشرة والثامنة عشرة سنة.» وقد أسلم- حسب اعترافه أمام المحققين- خلال نفس السنة التي أسر فيها، وختن، ومنذ ذلك الوقت وهو في خدمة سيده في السفن» .وقد غير اسمه وأصبح ينادي بمامي. وبعد إسلامه، شرع حسب اعترافه في القيام بالفرائض الإسلامية ، وواظب عليها.

وعن نشاطه الجهادي، وما إذا سبق له أن أسر مسيحيين، أجاب المحققين:« بأنه ساعد، سواء بالمشرق أو من المضيق إلى هذه الربوع، في أسر مسيحيين كثيرين، إلى حد أنه يتعذر عليه تذكرهم». وعن نشاط سلا الجهادي قبل سنة 1550، والجهات المهاجمة، والطرق المعتمدة في ذلك، وخصوصا إكراه المسيحيين على توجيه السفن الجهادية نحو السواحل الإيبيرية، وردت بعض الإشارات المفيدة. فقد ذكر أحد المبلغين بانه « لما كان (Diogo Rodriguêz)، المقيم ب(سانتا ماريا) محجوزا بسلا هو ومركبه، توصل بالترخيص الملكي قصد التوجه إلى قشتالة، فشرع في التاهب للخروج من هناك. وما أن غادر الميناء حتى لحق به (مامي) المذكور واعتقله واقتاده إلى العرائش حيث ترك مركبه بمن كان معه، وحمله معه مدة خمسة عشر يوما أكرهه خلالها على إطلاعه على الموانئ والمناطق التي يمكنه مباغتتها، وذلك قبل أن يرجعه إلى العرائش ويعيد له مركبه».

ويفهم من نفس الاستنطاق أن قائد سلا، الذي لا يخبرنا المحضر باسمه، كان يملك عددا من المراكب الجهادية، وأن أحدها أسر له بمدينة Taviraبجنوب البرتغال، وأن الذين صاحبوه خلال رحلتهم الأخيرة كانوا ثلاثة وثلاثين نفرا.

ولم تكن كل السفن الجهادية السلاوية في ملكية قائد المدينة، بل كان أشخاص آخرون، كسيد العلج المذكور، يمكلون سفنا خاصة بهم، وكان يساعدهم في عملهم الجهادي بعض المسيحيين البرتغاليين. فقد ذكر أن سيده كان يستفيد من مساعدة المدعو Francisco de Freitas وابنه، وسبعة أشخاص من الجنوب البرتغالي، وهو ما يؤكد إشارات أخرى إلى الأدوار التي لعبها بعض البرتغاليين في تسليح المغاربة والشرفاء السعديين في بداية أمرهم على وجه الخصوص .

ويفهم من شهادة أدلى بها شخص سبق له التعرف على المعتقل بسلا أن هذا الأخير « دفعته حقارته وتمسكه بالإسلام يوما إلى مغادرة سلا في سفينة كان يقودها، واستولى على كرفيلتين كانتا محملتين قمحا أرسله الملك، عاهلنا، إلى مازيغن، وعاد بهما في نفس اليوم، وأسر بهما ستة عشر نفرا أو أكثر، أكره صبيين منهم على اعتناق الإسلام». وهو ما اعترف به المتهم نفسه خلال جلسة الثالث والعشرين من شهر أكتوبر 1550، وأرجعه إلى سنة 1546، مضيفا أن المراكب الخمسة التي استعملت في الهجوم كانت في ملكية قائد سلا.

ونعلم من خلال نفس الشهادة أن بعض المراكب الجهادية السلاوية كانت تجلب من فاس عبر « نهر العمورة»، أي سبو. كما أضاف أنه « شاهد مرة دخول مامي وسيده في مركبين بعد أن استولوا على سبعة أو ثمانية مراكب من (سان لوكار) وقادس. وكان سيده قد وضع كل الاسرى في كرفيلا محملة خمرا وكلف مامي المذكور بالعودة بها إلى سلا، وهو ما لم يتمكن منه بسبب الرياح التي أرغمته على التوجه إلى العرائش حيث انتظر سيده. وقد لام الشاهد ومسيحيون آخرون كانوا هناك (مامي) المذكور على عدم مساعدته للنصارى على الفرار، طالما أنه قادر على ذلك، فسبهم ونعتهم بالكلاب وقال لهم بأنه مسلم وليس مسيحيا، وأنه يتعيش من عمله. وسمعه عدة مرات يردد بأنه سيأسر كل المسيحيين وسينقلهم جميعا إلى بلاد البرابرة»، .وأضاف



نفس الشاهد أن مامي المذكور« غادرمرة أخرى سلا قصد الاستيلاء على كرفيلا كانت تبحر بمحاداة المدينة، إلا أنه عجز عن ذلك لسوء الأحوال الجوية. ولما عزم على دخول الميناء، غرق كل من كان معه لعنف الأمواج، ولم ينج غيره».
وعلى ذكر الغرق، تشير شهادة إلى أن العلج المذكور كان يعلق بعنقه رزمة تراب من قبر ولي بالمهدية الحالية لكي لا يغرق، ولكي لا يعتقله المسيحيون.
ويتضمن نفس المحضر إشارات إلى الجهاد البحري الذي كانت تعرفه بادس قبل احتلاء الحجرتين المقالتين لها سنة 1564. فقد ذكر شاهد آخر أنه لما « كان أسيرا ببادس منذ ثمان سنوات(1542)، تعرف على العلج المذكور الذي كان يسمى مامي، والذي كان آنذاك في خدمة سيده التركي... وقد علم أنه غادر مرتين بادس رفقة سيده، كانا خلال أولاهما في مركب من سعة اثني عشر مقعدا، وكانا خلال الأخرى في ثلاثة مراكب هاجما بها البلاد المسيحية وأسرا في المرة الأولى ثلاثة وثلاثين برتغاليا أو أكثر، كانوا يرافقون الجير الموجه إلى سبتة، وأسرا في المرة الثانية سبعة عشر مسيحيا. وقد عرفه خلال الخمس سنوات التي قضاها هناك».

يزودنا المحضر السابق بخريطة الجهاد البحري في مغرب النصف الأول من القرن السادس عشر. فقد كان ذلك النشاط منحصرا في مرافئ بادس(قبل احتلال الصخرتين) وتطوان والعرائش وسلا ، وذلك لكونها كانت غير خاضعة للاحتلال، كما كان الشأن بالنسبة لباقي الموانئ. وباستثناء بادس، كانت تلك الموانئ الجهادية بمصبات الأنهار للأسباب التي سنعود إليها. وكان ميناءا العرائش وسلا، الموجودان على المحيط، نشيطين آنذاك، مما ينفي أن يكون انطلاق ذلك النشاط مرتبطا باستقرار الموركسيين بالمغرب بعد 1609.
وكان طاقم السفن يضم عددا من المغاربة الذين كان بعضهم يحتل مراتب عليا في القيادة. ولم يكن الانخراط في ذلك النشاط الجهادي يقتصر كما رأينا على سكان مدن الساحل المتعودين بشكل أو بآخر على الملاحة، بل شارك فيه بحماس أناس ينحدون من مناطق داخلية سبقت الإشارة إليها. وكانت المراكب القرصنية تعتمد في تحركها على الجدافين، الذين كان جلهم من الأسرى المسيحيين.
كان أغلب السفن القرصنية مما غنم في البحر، وإن لم يكن الإنتاج المحلي غائبا، كما كان الشأن ببادس، التي كان ظهيرها يوفر خشبا جيدا. وعن سلا، وصلتنا إشارة غريبة ومعبرة عن الظروف غير المساعدة التي انطلقت فيها العمليات الجهادية بتلك المدينة: فقد أمر قائدها بصنع مركب على نفقته بضواحي بفاس نقل منها عبر سبو إلى المهدية الحالية.
اقتصر نشاط المراكب القرصنية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر على منطقة ضيقة تشمل الساحل الأطلسي المغربي بين العرائش وسلا والمنطقة الممتدة بين المضيق ورأس (سان فيسانت)، بجنوب البرتغال. لقد كان ملاحو تلك المراكب يكتفون بالغارة على المناطق الساحلية الإيبيرية وبانتظار السفن المحملة بالجير والمؤونة الموجهة إلى الثغور المغربية المحتلة من قبل الإسبان والبرتغاليين. لذا لم نقف على أية إشارة إلى أي هجوم على الجزر الخالدات أو ماديرا أو الأصور. كما لم تكن عملياتهم تشمل كذلك شرق إسبانيا التي كانت منطقة شبه محتكرة من لدن قراصنة الجزائر. وكانت السفن العائدة آنذاك من أمريكا أو "غينيا" بعيدة عن مناطق تحرك المراكب القرصنية، ذلك أن توزيع الرياح والتيارات البحرية كانت تفرض على المراكب التجارية مسالك لم يكن القراصنة يجرؤون على ولوجها.



وتؤكد المعلومات الواردة في محضر محاكمة العلج Simon Gonçalvez، الذي تابعته محكمة تفتيش لشبونة سنة 1555بعد أسره كذلك بجنوب البرتغال إثر هجوم فاشل، المعلومات الواردة بمحضر محاكمة العلج الجنوي الأصل السابق الذكر. فقد كانت بادس حسب شهادته أهم مرفئ قرصني بالمغرب، الأمر الذي دفع الإسبان إلى احتلال الحجرتين المقابلتين له سنة 1564. فقد أخبر العلج المذكور المحققين أن المركب الذي كان يعمل به كمحارب غادر مرة بادس في اتجاه مضيق جبل طارق. وبعد تجاوز طنجة، لحقت به سفينتان تركيتان. ومن هناك توجت المراكب الثلاثة صوب جنوب البرتغال لمهاجمة ضواحي مدينة Albufeira التي طردهم سكانها. واستطاعوا بعد ذلك الاستيلاء على مركبين وبعض الرجال. وبعد أن نقلوا ما غنموه إلى أصيلا، ا التحقت بهم هناك ثمانية مراكب تركية. أبحرت تلك المراكب واستولت على كرفيلتين إسبانيتين. ومن أصيلا التي التحقوا بها لاقتسام الغنيمة، أبحروا من جديد صوب قادس، إلا أنهم لم يتمكنوا من النزول بها لحيطة سكانها. وبذلك اضطروا إلى التوجه صوب مدينة Albufeira البرتغالية. وما أن نزلوا حتى طردهم السكان، وقتلوا لهم أحد رجالهم. واستنفر السكان الأسطول الحربي الذي طاردتهم بعض قطعه. واستطاع أحد المراكب القرصنية الإفلات، بينما غرق آخر وعلى متنه تسعة وثلاثون شخصا منهم أربعة مسيحيين. وهزم المركبان اللذان حاولا المقاومة. ووجد البرتغاليون على متنهما علوجا من جنسيات مختلفة :إيطاليين، برتغالي، إغريقي، كرسيكي...

ج- الجهاد البحري في العهد السعدي

استعاد المغرب وحدته السياسية سنة 1554. وبعد أن تمكن السعديون من تحرير جل الثغور المغربية، ورغبة منهم في الحفاظ على استقلال البلاد ودفع الأطماع التركية والإيبيرية عنها، حاولوا إحداث أسطول حربي. وللتمكن من ذلك، حاولوا الاستفادة من تجارب بعض المدن الساحلية كالعرائش وسلا اللتين سرعان ما أصبحتا أهم قواعد أسطولهم.

وسرعان ما عرف النشاط البحري في عهدهم تحولا واضحا: فقد احتركت الدولة منذ عهد الغالب الأنشطة البحرية وأصبحت الجزر الخالدات أهم منطقة مستهدفة لعمليات مراكبها. ففي شتنبر 1569 هاجم العلج "كلفاط" تلك الجزر على رأس عشر قوادس كانت تحمل ستمائة نفر غنموا أكثر من مائتي أسير.

وفي 21شتنبر من سنة 1571، غادر الدغالي سلا على رأس سبع قوادس كان على متنها أربعمائة محارب أسروا مائة شخص.

وحاول المنصور الذهبي بدوره الاستفادة سياسيا وماليا من القرصنة. واستمرت مراكبه حسب شهادة الفشتالي في مهاجمة الجزر الخالدات. وكان أهم هجوم عرفه عهده هو ذاك الذي نظمه الرايس شعبان بأمر من السلطان يوم 16غشت 1593ضد جزيرة Fuerteventura. ويبدو من خلال ما أورده الفشتالي أن جالية مهمة من المنحدرين من تلك الجزر تكونت بالمغرب، كانت نسبة منها في خدمة السلطان ومقربيه.





أوج القرصنة "السلاوية"

1 ـ أسباب ازدهار "سلا الجديدة" أو الرباط

نتج عن ضعف السلطة بعد موت أحمد المنصور سنة 1603 بروز العلميات القرصنية من جديد كنشاط حر لا يخضع لمراقبة الدولة ولإشرافها. وقد كان العقد الأول من القرن السابع عشر حاسما بالنسبة لتطور النشاط القرصني /الجهادي ببلادنا. فقد حرم الاحتلال ذلك النشاط من مرفأين هامين، هما العرائش التي اغتصبها الإسبان سنة 1610، والمعمورة التي تعرضت بدورها لنفس المصير بعد أربع سنوات. إلا أن النشاط المذكور عوض ذلك الانكماش الجغرافي بالإشعاع الكبير الذي عرفه بمدينة الرباط، أو « سلا الجديدة » Salé-Le-Neuf، كما تسميها المصادر الأوروبية.

كان النشاط القرصني خلال القرن السادس عشر بيد السلاويين، لكون الرباط كانت مهجورة. إلا أن هذه الأخيرة سرعان احتكرت النشاط المذكور وأضحت إحدى أكبر عواصم الجهاد البحري بالمغرب العربي، وإن ظلت المصادر الأوروبية تذكرها تحت إسم سلا. لقد نتج عن جرأة قراصنة تلك المدينة، ومدى عملياتهم الذي عرف اتساعا كبيرا، وما عرفته من إشعاع، إعطاء العمليات القرصنية /الجهادية بعدا دوليا جعلها تمثل شبحا مخيفا بالنسبة للأساطيل التجارية الأوروبية ولركابها.

وتداخلت عدة عوامل لتجعل ذلك النشاط يعرف أوجه خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر. ولعل أهم تلك العوامل استقرار عدد كبير من الأجانب بمصب أبي رقراق. وكان هؤلاء فئتين مختلفتين:

أ–**الموركسيون**: من المعلوم أن مسلمي الأندلس أكرهوا على التنصر في بداية القرن السادس عشر، وأن فشل محاولات إدماجهم في المجتمع المسيحي الإسباني فرض على الحكام الإسبان طردهم من البلاد سنة 1609. واستقرت آلاف منهم بضفاف أبي رقراق. إلا أن أولئك الوافدين لم يكونوا متجانسين، ،كانوا ينقسمون إلى فئتين متميزتين:

الهورناتشيون النازحون من منطقة **Extramadura** بغرب إسبانيا. وقد أطلق عليهم اسم مدينتهم التي تراوح عددهم بها بين 3000 و4000 شخص كانوا يعيشون من التجارة ومن النشاط الزراعي. وقد تميزوا عن موركسيي باقي المناطق الإسبانية بمجموعة من الصفات والمواقف. فقد كانوا يمثلون أغلبية داخل مدينتهم التي كانوا يسيرونها على شكل جمهورية. كما احتفظوا باستعمال اللغة العربية، واستمروا في تمسكهم بالإسلام بالرغم من وجود محاكم التفتيش. كما استطاعوا، مقابل دفع إتاوة، الاحتفاظ بأسلحتهم.

لم تكن المصادرالإسبانية تخصهم إلا بالنعوت القبيحة، إذ كانت تصفهم بقطاع الطرق واللصوص وبمزوري النقود والمتآمرين مع الأجانب. وللتخلص منهم، سمحت لهم السلطات جميعا، باستثناء أبنائهم الذين كانوا دون السابعة، بمغادرة البلاد وبحمل جميع أملاكهم. ويبدو أن عدد الذين التحق منهم بالمغرب بلغ 3000 شخص. وقد سمح لهم السلطان زيدان بالاستقرار بالضفة اليسرى لأبي رقراق، داخل القصبة التي شرعوا في ترميمها وتحصينها وتجديد بناء الدور بها.



الموريسكيون الأندلسيون الذين شملهم الطرد سنة 1610، والذين شجعهم الهورناتشيون على الاستقرار بجانبهم داخل أسوار مدينة الرباط الموحديةالتي كانت حسب وصفهم لها «قبل دخول هذه الجماعة له وسكنه فيه غاية الإهمال ، فبالغوا في تشييده وتحصينه وبناء مساجده وأسواقه حتى صار حاضرة من الحواضر، وصار الناس يأتون إليه من كل ناحية» . وتراوح عدد من التحق منهم بتلك المدينة بين 3000 و6000 شخص. وقد تحصن هؤلاء بدورهم وقلصوا من السور الموحدي وأضافوا إليه السور الرابط بين باب الأحد والنهر، وحصنوه ببرج سيدي مخلوف.

ب-أما القسم الثاني من الأجانب فتمثل في الأوروبيين الذين إما أسلموا(علوج) أو احتفظوا بدينهم. وقد سبقت لنا الإشارة إلى الدور الذي لعبه هؤلاء في انطلاق الجهاد البحري والقرصنة ببعض الموانئ المغربية.

أكد F.Braudel على نزوج آلاف الأوروبيين إلى العالم الاسلامي، وإلى الامبراطورية العثمانية على وجه الخصوص، خلال القرن السادس عشر، بسبب الرواتب العليا ومختلف الامتيازات التي كانت تخصص لهم. وتزايدت وثيرة ذلك النزوح خلال القرن اللاحق. فقد قدر (الأب دان) عدد الأوروبيين الذين كانوا يقيمون بمدينة الجزائر، والذين كان جلهم يعمل في القرصنة، بثمانية آلاف شخص، بينما تراوحت أعدادهم بتونس بين ثلاثة أو أربعة آلاف شخص. وقدر نفس المصدر عددهم بسلا بثلاثمائة فقط للسبب الذي سنعود إليه.

والتحق بقصبة الرباط عدد كبير من قراصنة العرائش والمعمورة الذين طردهم الاحتلال الإسباني، كما قصدها عدد من المغامرين الذين وفدوا عليها بحثا عن الغنى. وقد كان أولئك الأوروبيين، الذين كانوا بحارة متمرسين ومتعودين على الملاحة بالمحيط، ضروريين لانطلاق الجهاد البحري بمصب أبي رقراق وللتغلب على مشاكل الملاحة ب "بحر الظلمات".

وتولد عن وجود أولئك الأجانب بالرباط خلق جو اختلطت فيه اللغات والعادات، واحتك فيه التاجر بالمغامر وبالقنصل والرهبان المنتمين لعدة جنسيات، الوافدين من أجل تحرير الأسرى. لذا شاع بالمدينة استعمال اللغات الأجنبية، والإسبانية على وجه الخصوص.

وكان لأولئك الأجانب هدف مشترك :الحصول على أكبر الفوائد من القرصنة والغنائم التي تسمح بها. وكان يجمع بين الأندلسيين والهولنديين عداء مشترك للإسبان. فقد كان الأولون يحلمون بالعودة إلى وطنهم أو على الأقل بالانتقام ممن تسبب في المحن التي عانوا منها، ومن تغريبهم ومصادرة أملاكهم والإلقاء بهم في غياهب سجون محاكم التفتيش. لذا اعتادوا تبرير هجومهم على المراكب والسفن المسيحية بتبرير ديني، معتبرين أنفسهم مجاهدين:« وكانوا في عين الكفرة مبلغا لا يكيف لما يقع من هذه الجماعة من الإغارة على الكفرة في البحر في جزائرهم، وكانوا يغزونهم في عقر دورهم يغيرون عليهم في كل زمن ويسبون دراريهم ويأسروهم حتى كانت النصارى بسبب ذلك تباع بالبخس، حتى استعبدهم الغني والفقير وأذلهم الغزيز والحقير، وهم مع ذلك قائمون بحدود الشريعة، مظهرون شرائع الإسلام تحت أيالة مالك المغرب...».





2 ـ تنظيم القرصنة السلاوية :

أ ـ التنظيم السياسي وانعكاس الأوضاع الأمنية على القرصنة :

كتب R.Coindreau اية استقرار المورسكيين:« استطاع الذين عرفوا في التاريخ بالسلاويين تصور تنظيم حقيقي للقرصنة سرعان ما تمخض عن نتائج هامة. وقد تم لهم ذلك بفضل ثروات وجرأة الهورناتشيين، وحماس وعزم الأندلسيين ، والتوظيف الذكي للعلوج، والاستخدام القاسي للعبيد المسيحيين، فضلا عن استخدام المغاربة كجنود ».
ونظرا لوزنهم السياسي والاقتصادي داخل القصبة، احتكر الهورناتشيون السلطة السياسية وامتيازات الجهاد البحري وكذا مداخيل الضرائب الجمركية. كما لم يترددوا في الامتناع عن دفع أعشار الغنائم للسلطان. وسرعان ما تحالفوا مع الفقيه العياشي، الذي سبق له إعلان الثورة ضد مراكش. وبذلك تمكنوا من طرد ممثل السلطان بالقصبة، وخصوا أنفسهم بتنظيم شبيه بما كانوا عليه بمدينة هورناتشو، أي جمهورية أوليغارشية يسيرها ديوان مكون من إثني عشر أو أربعة عشر شخصا مقيما بالقصبة. وبذلك نحوا أندلسيي الرباط عن تسيير شؤون المدينة، وهو ما سارع هؤلاء إلى الاحتجاج ضده، خصوصا وأن أعدادهم تزايدت وفاقت أعداد الهورناتشيين. لذا طالبوا بإشراكهم في تسيير شؤون المدينة، الأمر الذي لم يستجب له. لذا اندلعت الحرب بين الطرفين في شتنبر 1529 . وساندت مدينة سلا، التي كان العياشي يقيم بها، هورناتشيي القصبة. وعلى إثر تدخل السفير الإنجليزي، وقع الطرفان في ماي 1630اتفاقا يقضي باقتسام السلطة ومداخيل الجهاد البحري والميناء بينهما. وبذلك أصبحت ثلاث كيانات سياسية تتعايش بمصب أبي رقراق : الجمهوريات الثلاث التي تتحدث عنها الدراسات الغربية، وإن كانت الصفة لا تنطبق في الحقيقة إلا على النظام السياسي المعتمد بالقصبة.

وبما أنه صعب على الهورناتشيين التخلي عن امتيازاتهم، فإن السلم كانت هشة بين الطرفين. وقد حاول العياشي سنة 1631 أن يستفيد من هذه الوضعية لنشر نفوذه على مدينة الرباط التي حاصرها وقذفتها مدفعيته إلى حدود أكتوبر من السنة التالية. وقد برر موقفه منهم بالاتصالات والمكاتبات التي تبادلها الأندلسيون، الذين كان السلاويون يتعتونهم ب: "المسيحيين القشتاليين" ، مع إسبانيا، وبرفضهم مساعدته في جهاده بالمعمورة التي كانت تحتلها تلك الدولة، والتي كان قد حاصرها سنة 1631. لذا عرض المراكب القرصنية لطلقات مدفعيته المنصوبة على الضفة اليمنى لأبي رقراق. وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المدفعية تحول دون تزود المدينة بالأقوات بحرا، حاصر ابنه المدينة برا.
وتمكنت وساطة السلطان الوليد من جعل حد للحرب. إلا أن الأندلسيين هاجموا في ماي 1636القصبة على حين غرة وتمكنوا من طرد الهورناتشيين منها وأرغموهم على الالتجاء إلى سلا أو الهجرة إلى الجزائر أو تونس. وشجع ذلك الانتصار الأندلسيين على محاصرة سلا لمدة شهرين. وكادوا أن يدخلوها عنوة لولا تدخل مدفعية الأسطول الإنجليزي الراسي قبالة المدينة منذ ثالث أبريل 1637.
وضرب العياشي حصارا جديدا على الرباط في ماي 1637 وساعده الأسطول الإنجليزي في ذلك، الأمر الذي جعل المدينة تعاني من المجاعة. وبسبب تلك الظروف الحرجة انقسمت كلمة السكان، واختلفت مواقفهم .



كان العياشي يطالب مقابل إنهاء حالة الحرب بنصف مداخيل القرصنة والجمارك وبإرجاع الهورناتشيين إلى الديوان، الأمر الذي لم يلق استجابة. وبذلك استمرت القلاقل بالمدينة إلى حين احتلالها من لدن الدلائيين سنة 1641.

ونظرا للضغوط المفروضة عليهم، اتصل الأندلسيون بإسبانيا قصد تسليمها مدينة الرباط. وبالمقابل، اتصل العياشي بهولندا وفرنسا قصد تزويده بالمدافع والدخيرة. وتمكن العياشي من استغلال انتصاره على حامية مازغان (الجديدة الحالية) من دعم مادي ومعنوي ضغط به أكثر على الأندلسيين. إلا أن الدلائيين الذين بدأوا يتطلعون إلى ميناء حالوا دون تحقيقه لانتصار حاسم على أعدائه. وبما أن العياشي رفض الانصياع لأوامر الدلائيين بإنهاء الحرب، فإنهم تدخلوا وأحكموا سيطرتهم على مدن المصب الثلاث التي أصبحت تحت الإشراف المباشر لابن الدلائي الأمير عبد الله. وبذلك عرفت مدينة الرباط بقسميها استقرارا حقيقيا فيما بين 1644و1660. إلا أن المدينة أعلنت في السنة الأخيرة عصيانها وحاصرت ممثل الزاوية الدلائية داخل القصبة لمدة سنة ونصف. واستمرت الاضطرابات إلى حين دخول قوات المولى الرشيد إليها في يونيو1666.

ب ـ تمويل الجهاد البحري

استنتج Coindreau خلال حديثه عن القرصنة "السلاوية" في نهاية القرن السادس عشر ما يلي: « لم تكن سلا قبل القرن السابع عشر مرفأ قرصنيا خطيرا ». واستند في استنتاجه ذاك على (الأب دان) الذي أشار إلى وجود « بعض المراكب القرصنية، وهو ما لم يكن يثير انتباه أحد ».

ومما لا شك فيه أن ما سبق ذكره يؤكد عدم دقة هذا الاستنتاج. وقد ربط المؤلف بين إشعاع المدينة واستقرار الهورناتشيين الذين كتب عنهم: « بصفتهم قطاع طرق سابقين بمنطقة Extram-adura، كان الهورناتشيون مؤهلين للسرقة في البحر. فسرعان ما أصبحوا بعد وصولهم إلى المغرب وجيوبهم مليئة بالدوقات، أهم منشط للقرصنة. وبذلك استحوذت القرصنة على كل أنشطتهم. ولهذه ا الغاية، بادروا إلى تعديل السفن المسيحية التي كانوا يستولون عليها، واقتنوا أخرى من الأوراش المحلية، وحاولوا بكل الوسائل ضمان مساعدة الأجانب في تسليح أسطولهم، بل وكانوا يحاولون الحصول على سفن مجهزة على أحسن طراز ».

لقد كان احتراف الهورناتشيين للقرصنة في الحقيقة نتيجة لقلة الامكانات التي أتيحت لهم لاستثمار أموالهم في الفلاحة أو التجارة نظرا لأوضاع البلاد السياسية والاجتماعية. كما ساعد على ذلك الحقد والعداء للإسبان، للأسباب المعروفة، ووجود بنيات وتقاليد بحرية جهادية بسلا.

كان الاستثمار في العمليات الجهادية حكرا على الهورناتشيين الذين كانوا يسهمون، كل حسب ادخاره وما توفر لديه. وكان المستثمرون يلجأون إلى الاقتراض من اليهود في حالة ما إذا لم يتوفر لديهم ما يكفي لتغطية مصاريف عملياتهم.

كانت السفن المجهزة تمثل، خصوصا إذا كانت من حجم معين، استثمارا حقيقيا يمكن أن يهم عددا كبيرا من الأشخاص، إذ كان يتعين إيجاد المركب ولوازمه، وتجنيد طاقمه وجدافيه، هذا فضلا عن تقنييه من رياس بحر وبحارة ونجارين...



ج ـ السفن والتجهيزات البحرية
انتهجت القرصنة السلاوية نفس الطرق والتقنيات المعتمدة من لدن قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس وكيفتها مع معطيات الملاحة بمصب النهر وفي المحيط الأطلنطي. لقد كانت ظروف العمل تفرض استعمال مراكب خفيفة وسريعة تمتاز بتسطحها وبقدرتها على الانسلال بدون خطر من خلال مجاري المصب القليل العمق، والمتضمن لأقاصير رملية خطيرة.
يصعب حصر مختلف أنواع المراكب المعتمدة من لدن القراصنة السلاويين، ذلك أن المصادر تذكرها بشكل عام وغير دقيق. واستطاع Coindreau، الخبير بالملاحة وبتقنياتها، حصر ما يناهز عشرين إسما للسفن الجهادية السلاوية نورد أهمها بصيغتها اللاتينية لصعوبة تعريبها:
tartane, brigantin, chebec, polacre, pinque, caravelle, pinasse, carraque, senau, frégate, vaisseau, flûte, flibol, Gabarre, patache, Setye, galiote, ...
واختلفت أحجام المراكب الجهادية كثيرا، وتراوحت بين تلك التي تتوفر على صاري واحد، والمتضمنة لخمسة. كما تراوحت حمولتها بين الخمسين والثلاثمائة طن. وكانت تلك السفن تحمل طواقم تتراوح أعدادها بين الثمانين نفرا والثلاثمائة، ومدفعية قد تصل بالنسبة لأكبرها إلى المائة قطعة.

لقد فرضت الملاحة بالمحيط التخلي عن القوادس (Galères) التي تعتمد على المجاديف كقوة دافعة، وتم تبني المراكب الشراعية المستديرة. وكانت النماذج الأولى المعتمدة من تلك السفن محلية الصنع، إلا أنها كانت سيئة النوعية والتجهيز. وسرعان ما عوضتها السفن المأسورة في البحر، والتي اعتمدت بدورها كنماذج في صنع مراكب جديدة بأوراش الرباط بناء على خبرات العلوج والأسرى المسيحيين. ومن جهة أخرى، التجأ المجاهدون إلى مساعدة دول حليفة كهولندا التي كانت مزودهم الرئيسي بوسائل الملاحة.

واعتمادا على تلك المجهودات، كان بحوزة السلاويين سنة 1635 أسطول مكون من ثلاثين قطعة، وهو ما مثل ربع المراكب القرصنية بالمدن المغاربية الأربع (122)، وخول لسلا المرتبة الثانية بعد الجزائر (70 مركبا، تونس=14، طرابلس=8).

واسفادت "سلا" كثيرا من موقعها بمحاذاة الطرق التجارية الدولية المتجهة صوب الجزر الأطلطية والمراكز التجارية الإفريقية والعالم الجديد. كما أن النتائج التي حققها بحارتها، والمهارة التي أظهروها في المطاردة والفرار، لا تعود لما توفر لديهم من تقنيات ووسائل. فقد كانت هذه الأخيرة دون مستوى ما كان متوفرا لدى البحارة الأوروبيين. كما أن السلاح المعتمد لم يكن متطورا ولم يكن يسمح للقراصنة بمواجهة الأساطيل الحربية الأوروبية. لقد تولد الهلع والخوف الذي كان القراصنة السلاويون يحدثونه في نفوس البحارة والتجار المسيحيين عن جرأتهم وإقدامهم، ولما كانوا يعتمدونه من تكتيك وطرق لمفاجأة الخصم والقضاء على كل محاولة مقاومة لديه.

كانت الملاحة بمصب أبي رقراق تكتنفها صعوبات كثيرة نظرا لقلة عمق المياه ومحدودية الممرات القابلة للملاحة وانعراجها وتغير مواقعها. وكانت الحواجز الرملية تحول دون ولوج المرفأ. كما



Caravelle

Tartane

Polacre

Chebec

Senau



مثل عنف الأمواج وانكسارها العنيف على تلك الحواجز عائقا إضافيا تسبب في كثير من الحوادث. لذا كان يتعذر على المراكب مغادرة المرسى خلال فصل الشتاء. فقد ذكر القنصل L. Chénier أن تراكم الرمال بالمصب كان يحتم على المراكب من فئة مائتي طن التخلي عن مدفعيتها وصابورتها بعد دخول الميناء. وربط (الأب دان) بين صعوبة الملاحة بالمصب ونوعية المراكب المعتمدة: « إن عمق المياه المنخفض بهذا المرفأ فرض على قراصنة سلا استعمال مراكب خفيفة من نوع carraques، pinques وpolacres. إن ما يخسرونه بسبب عدم اعتمادهم على مراكب ذات قوة تعادل ما يتوفر لقراصنة الجزائر وتونس ، يعوضونه بسرعة مراكبهم وخفتها، مما يسمح لهم بمطاردة السفن في ظروف أحسن ».

ويعتبر R.Coindreau أن النواة الأولى للأسطول السلاوي كانت مكونة من مراكب متوسطية أو برتغالية، وأنها« مثلت النماذج الأولى التي سجلت التحول من الملاحة المعتمدة على المجاديف إلى تلك التي تعتمد الأشرعة ». وقد رتب الأنواع الأكثر استعمالا بسلا، والأكثر شيوعا على الشكل التالي:

– فقد صنف ضمن المراكب الخفيفة: Tartane et brigantins

–وصنف ضمن السفن المخصصة للعمليات بأعلى البحار: chebecs, pinques,polacres, caravelles « وهي كلها سفن ذات ثلاثة صواري ، قلما تتجاوز حمولتها مائتي طن. ففي هذه المراكب حقق القراصنة السلاويون أهم منجزاتهم، وأضحوا مهابين خلال القرن السابع عشر(...) وقد وحدت ميزتان أساسيتان بين كل السفن السلاوية، كيفما كان شكلها وحجمها : السرعة والقدرة الهجوميةالكبيرة ».

وانعكست الأوضاع السياسية العسكرية داخل مدن المصب، وكذا الضغوط الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، على تطور القرصنة السلاوية. فابتداء من سنة 1626 بلغ عدد السفن الجهادية ستين قطعة. إلا أن الحرب الأهلية التي عرفتها الرباط انعكست سلبا على العمليات البحرية، إذ سرعان ما فقد الأسطول نصف قطعه. وعلى الرغم من انتعاش لاحق، لم تتجاوز الأعداد 45قطعة. وتضرر الجهاد البحري من جديد من الحرب بين الفقيه العياشي والأندلسيين، ومن الفوضى التي عمت المدن الثلاث إلى حين دخول القوات الدلائية إليها سنة 1641. فبعد هذا التاريخ، تراوح عدد المراكب بين 20 و25 قطعة، قبل أن تنخفض خلال النصف الثاني من القرن إلى حوالي خمس عشرة قطعة. وفي عهد المولى إسماعيل بلغ العدد 13. وكان للمراكب القرصنية ثلاثة مصادر:

–الاستيراد، وخصوصا من هولندا التي كان يجمعها مع السلاويين عداء مشترك للإسبان. إلا أن هذه الدولة لم تزودهم بمراكب جاهزة كثيرة.

– الغنائم في البحر. وقد كان القراصنة يختارون من تلك الغنائم ما هو صالح للاستعمال الفوري أو ليكون نموذجا بأوراش الرباط،

– الصنع المحلي بالأوراش الموجودة أسفل صومعة حسان. لم تكن المناذج المصنوعة جيدة نظرا لقلة الوسائل (الرفع على الخصوص) وانعدام الخبرة وسوء نوعية خشب المعمورة.

د ـ طواقم المراكب القرصنية



كانت السفية تحت قيادة "رايس" يختار لتجربته في ميدان الملاحة وبلائه في العمل القرصني، ولكفاءاته وقدرته على التسيير، لذا كان عدد من أولئك الرياس من العلوج المنحدرين من أصول أوروبية، وإن كان عدد هؤلاء أقل بكثير مما كان عليه بالجزائر أو تونس. فمن مجموع 36 "رايس" سلاويا وردت أسماؤهم، لم يمثل العلوج منهم إلا ثمانية فقط. ومن بين الرياس الاثنى عشر الذين هاجموا الجزر الخالدات كان أربعة منهم أندلسيين وستة علوجا.

وبسبب الاعتماد المتزايد على السفن الشراعية التي تتطلب قيادتها خبرة أكبر من قيادة القوادس (أو الشواني)، تحتم الالتجاء أكثر فأكثر لخبرة وتجربة العلوج والمسيحيين، خصوصا في ميدان القيادة وتوظيف الأشرعة واستخدام المدفعية والأسلحة النارية. لذا تزايدت أعدادهم بتزايد النشاط القرصني بسلا. فقد كتب الفرنسي **de Razilly** سنة 1626 في تقرير إلى الحكومة الفرنسية: «يوجد اليوم بإفريقيا أكثر من ثمانية آلاف من أجود الملاحين الذين استعبدوا وأكرهتهم المحن التي تعرضوا لها على ترك عقيدة السيد المسيح، وخدمة القراصنة وتوجيههم صوب سواحل فرنسا لأسر أقاربهم ومواطنيهم».

وتأسف فرنسي آخر على ضياع ألفي بحار فرنسي أسرهم قراصنة المغرب العربي، اضطر نصفهم بسبب مختلف المحن والمعاناة والحرمان واليأس إلى «تلقين الملاحة للأعداء وتمكينهم من وسائل إلحاق أضرار بليغة بوطنهم الحبيب، طمعا منهم في الحصول على تحسن ولو بسيط لظروف عيشهم».

كان الطاقم يضم كذلك عددا من المحاربين الذين يقتحمون المراكب المهاجمة ويخوضون العمليات العسكرية اللازمة للسيطرة عليها. وكان أولئك المحاربون مسلحين بالسيوف والفؤوس والبنادق، وكانوا إما من الأندلسيين أو من القبائل المجاورة للمدينة.

ولأخذ فكرة عن طواقم تلك السفن نورد بعض الأمثلة. فقد شملت الحملة التي نظمها الرايس مراد ضد الجزر الخالدات، والتي سبقت الإشارة إليها، مركبين كان يقود أحدهما، وكان على متنه 42 شخصا، منهم ثمانية أندلسيين، هذا فضلا عن ثمانية علوج هولنديين وأربعة عشر أسيرا مسيحيا من نفس الجنسية. أما المركب الذي كان يرأسه رفيقه كالافات، فكان يحمل ثلاثين "تركيا" ومغربيا، ومورسكيين اثنين وثمانية أسرى هولنديين لم يسلموا بعد.

واستولى أسرى كانوا بمركب سنة 1625 بعد تمرد ناجح على طاقم السفينة المكون من ثمانية وسبعين شخصا، كان منهم ثلاثة وأربعون مسلما واثنا عشر علجا، جلهم من أصل فرنسي وإنجليزي، وثلاثة وعشرون أسيرا مسيحيا.

وكان الطاقم أقل عددا في بعض الحالات، ذلك أنه لم يكن يتعدى في كرفيلا سلاوية أسرت سنة 1635 من لدن مركب إنجليزي خمسة وثلاثين نفرا، كان من بينهم ستة وعشرون مسلما، وتسعة علوج.

اعتادت المراكب السلاوية توظيف المجاذيف والأشرعة في نفس الوقت. وكانت تلك المجاذيف تشغل من لدن الأسرى المسيحيين الذين كانوا إما ملكا لأصحاب السفن أو لآخرين يؤجرونهم لهم. ومن باب الحيطة، وتفاديا لعصيانهم، «كانت أرجل وأيدي كل أربعة منهم تربط مع بعضها في قضبان حديدية كبيرة تتدلى منها سلاسل وقيود». (الأب دان). وبالفعل، استغل أولئك الأسرى عدة مرات انشغال الطاقم باقتحام سفينة ما للتحكم في المركب وأسر من كان فيه.

ارتبط عدد أفراد الطاقم بحجم المركب. وتراوح بين الثلاثمائة بالنسبة لأضخمها، والثمانين





شخصا بالنسبة لأصغرها، لم يكن طاقم المراكب السلاوية يتوفر على مساحة تسمح له بالحركة وبسفر مريح، إذ أن جل مساحة المركب كانت تخصص لحمل السلاح والمدفعية والذخيرة والزاد والماء، ولا يترك منها للطاقم إلا قسم محدود.

اقتصرت التغذية في المراكب الجهادية حسب (الأب دان) على « البسكويت والزيت والخل والأرز وباقي الخضروات». وحسب شهادة أخرى أكثر دقة، كان الفطور يتكون من الخبز والزيتون، والغداء من "الخليع"، والعشاء من الحمص والكسكس. مبدئيا لم يكن يسمح بحمل المشروبات الكحولية.

عرفت القرصنة السلاوية شخصيات بارزة اكتسبت شهرة واسعة نذكر من بينها:
* **الرايس مراد** الذي ورد اسمه في المصادر الأوروبية في صيغ كثيرة. كان هولندي الأصل، يسمى **Jan Jansz**. أعطى للقرصنة السلاوية بعدها الدولي، إذ عرفت تحت إشرافه وعلى يديه أقصى توسع في اتجاه الشمال.

فبعد أن اشتغل في القرصنة الهولندية أولا، ولحسابه الخاص ثانيا، أسر بالجزر الخالدات من لدن قراصنة الجزائر التي وصلها سنة 1618. وبعد أن أسلم بها، وضع نفسه في خدمة علج هولندي آخر، الرايس سليمان. وإثر موت هذا الأخير سنة 1619، التحق بالرباط حيث تزوج وخولت له مهام سياسية بديوان القصبة. إلا أن انشغالاته السياسية والإدارية لم تنسه نشاطه القرصني. وهكذا ساهم شخصيا في العمليات التي خطط لها. ففي سنة 1622، وصل إلى بحر المانش ودخل بكل جرأة ميناء هولنديا قصد التزود بالماء والمؤونة. وهناك استقبل زوجته وأبناءه الذين فشلوا في إقناعه بالبقاء إلى جانبهم.

لم يكن الرايس مراد يتردد في أسر السفن الهولندية رغم العلاقات الطيبة التي كانت تربط ذلك البلد بالديوان الذي كان أحد أعضائه، ورغم أنه هولندي الجنسية. وعلى إثر تلك المنجزات عينه السلطان زيدان «أميرال سلا».

ويبقى الهجوم على عاصمة إسلندا سنة 1626، وأسر عدد كبير من سكانها، أكبر إنجازات الرايس مراد. واعتبر البعض ذلك الهجوم "انجازا عسكريا حقيقيا بالنسبة للفترة".

وفي سنة 1631، نظم هجوما على إيرلندا نتج عنه أسر 237 شخصا بيعوا بالجزائر.

وبذلك تمكن الرايس مراد من جمع ثروة خيالية. إلا أنه قرر الالتحاق صحبة عائلته بالجزائر للإقامة بها. وسرعان ما أسره قراصنة مالطة، الأمر الذي كان له صدى كبير بالجزائر. ودام أسره إلى سنة 1640. وبعد استعادته لحريته، عاد للإقامة بالمغرب حيث وضع نفسه في خدمة سلطانه. وقد منحه هذا الأخير قيادة قصبة الوليدية، الموجودة شمال مدينة آسفي. وزارته ابنته الهولندية بالمدينة الأخيرة، إلا أنها لم تستطع الإقامة بالمغرب وأبحرت في اتجاه بلادها في صيف 1641.

ولم نتوصل بما يطلعنا على ظروف إقامته في نهاية حياته بالمغرب.

* **عبد الله بن عائشة** كان آخر أكبر رياس مصب أبي رقراق. ومعلوم أنه عرف كذلك بسفارته الشهيرة إلى باريز في عهد لويس الرابع عشر.

شرع في نشاطه القرصني حوالي سنة 1672، دون أن يستطيع إثارة الانتباه. وقد كان في سنة



1684يتقلد مهمة "قائد سفن سلا"، واصطدم عدة مرات مع فرقاطات إنجليزية. وفي 15 يوليوز من نفس السنة، لاحقه أعداؤه ولم يفلت من الأسر إلا بعد أن جنح بمركبه قرب سلا. واستولى سنة 1686على مركب فرنسي، وإن فشل في محاولة إدخاله الميناء.

وابتسم له الحظ ابتداء من سنة 1687. فقد أسر مركبا يحمل اثنين وعشرين مدفعا. وفي يوم 12مارس، وبينما كان يرفع علما جزائريا، استولى بسهولة على مركب فرنسي آخر محمل حبوبا اقتاده إلى الجزائر. وبعد أسبوع، أسر مركبين فرنسيين وخمسة وعشرين بحارا إنجليزيا. ومن 11إلى14 ماي من نفس السنة، استولى على ثلاثة مراكب وجه أحدها إلى تطوان والآخرين إلى الجزائر.

وبذلك أصبح مشهورا ومهابا من لدن الأوروبيين والفرنسيين على وجه الخصوص. ونظم في سنة 1691 أهم حملة في حياته. فمن مارس إلى ماي، استولى على ستة مراكب. وخلال شهر يوليوز أسر كرفيلا برتغالية قرب لشبونة.

وبتعاون مع قرصان آخر، فنيش، أسر قرب الجزر الخالدات أربعة مراكب، اثنان منها إنجليزيان وآخر جنوي، والرابع فرنسي. وفي خريف نفس السنة، استولى على مركبين فرنسيين.

وخلال السنة 1693، وبينما كان على متن سفينة تحمل 24مدفعا وطاقما مكونا من 180 شخصا، استولى على مركب برتغالي كبير كان في طريق عودته من البرازيل، كان على متنه حمولة نفيسة.

وفي السنة التالية، استعان ابن عائشة بأخيه عبد الرحمان، الذي كان يقود مركبا يحمل 18 مدفعا و180 شخصا. وقد استطاعا معا تحدي الحصار البرتغالي المضروب على مصب أبي رقراق. واستطاعا خلال خريف نفس السنة قرب الأصور وماديرا أسر مركب إنجليزي حمولته 100طن، وآخر كان في طريق عودته من أمريكا. وفي سنة 1695 كان ابن عائشة على رأس أسطول مكون من خمسة مراكب. وفي السنة التالية، نقل ابن عائشة عملياته إلى الأبيض المتوسط. وقد اضطر أمام مطاردة سفن فرنسية له إلى أن يجنح بمركبه للافلات من قبضتهم، الأمر الذي جمد عملياته لأكثر من سنة. ووصفه قنصل فرنسا ب:« ألد أعداء فرنسا ».

وخلال سنة 1498، قام بآخر عملياته. فقد أمضى أكثر من شهر على متن سفينة تحمل عشرين مدفعا وأربعة وعشرين منجنيقا وطاقما مكونا من مائتي شخص. وفي مستوى خليجي غاسكون وفنستير(Finistère)،استولى على خمسة مراكب، اثنتان منها إنجليزية، وثلاثة فرنسية.

وبفضل تلك المنجزات، حظي ابن عائشة بتقدير كبير من السلطان المولى إسماعيل الذي كلفه بالسفارة الشهيرة إلى باريس.

وأسهم رياس آخرون في شهرة القرصنة السلاوية، نذكر منهم:

الحكيم الذي كان مساعد عبد الله بن عائشة، والذي بقي يمارس نشاطه من سنة 1671إلى أواسط القرن الثامن عشر.

الرايس فنيش، الذي كان بدوره إلى جانب ابن عائشة.

الرايس أمعيز، 1691

الرايس جعفر، علج إنجليزي، 1630

علي هرادو، 1635



محمد الحاج قنديل، 1688
الحاج فاضل، 1654
حسن إبراهيم، 1636
الرايس مامي، علج هولندي، 1636
الرايس معنينو، 1671
الرايس محمد جزوليت، 1633
الرايس شعبان،علج برتغالي،1646
الرايس مراد، علج جنوي،1637
أحمد القرطبي، كان على متن المركب الذي أسره قرصان هولندي وأحرقه بالرغم من الاتفاق المبرم مع الرباط. وقد اضطرت هولندا إلى تغريم القرصان وتعويض القرطبي وتحمل مصاريف إقامته بهولندا وعودته منها.
علي كانبوس، 1654
الرايس محمد، ابن القرطبي، 1672.
إلخ

هـ- تكتيك واستراتيجيات الهجوم لدى القراصنة السلاويين

لم تكن النتائج المحصل عليها من لدن القراصنة السلاويين وليدة تفوقهم التقني على خصومهم. لقد نتجت في الحقيقة عن كفاءاتهم الشخصية، وجرأتهم واقتحامهم للمخاطر، وللحيل التي اعتادوا استعمالها للاستيلاء بدون قتال على غنائمهم.

اعتاد قباطنة المراكب القيام بطقوس وأعمال معينة قبل مغادرة الميناء، يتوخون منها جعل الحظ بجانبهم، وإبعاد كل ما من شأنه أن يهدد أمنهم وسلامتهم خلال رحلتهم. وكانت زيارة الأضرحة وتقديم الذبائح من بين تلك الطقوس. وشاع لدى البحارة الأوروبيين أن قوة السلاويين تكمن فيما كانوا يقومون به من طقوس، وفي القوى الخفية التي كانت تساعدهم. لذا قلما كانوا يحاولون الصمود في وجههم.

كانت المفاجأة أهم سلاح اعتمده السلاويون الذين لم يكونوا يهاجمون أعداءهم إلا في حالة التفوق عليهم والتأكد من أن الانتصار سيكون حليفهم. لذا كانوا يختارون سفنا منعزلة، قليلة السلاح، وكانوا يبحرون في مجموعات صغرى تتعاون فيما بينها، كما نبه إلى ذلك (الأب دان). « لم يكن أولئك البرابرة يخاطرون بأنفسهم إلا في مراكب كثيرة، بينما كان بحارتنا على العكس من ذلك يبحرون فرادى في جل الأوقات، أو كانت تبعدهم عن بعضهم الإعصارات. لم يكن القراصنة يهاجمون التجار المسيحيين إلا في حالة تأكدهم من تفوقهم، ذلك أنهم إذا لم يكن عددهم يتجاوز عدد أعدائهم مرتين أو ثلاث، أو على الأقل إذا لم يكونوا على متن مركب أضخم من مركب أعدائهم، فإنهم لم يكونوا يهاجمون إلا نادرا».

كان الهجوم يتم بشكل مباغت. وللاقتراب من المركب المستهدف، كانوا يلجأون إلى عدد من الحيل: رفع أشرعة سوداء خلال الليل وأعلام بلدان أخرى، والظهور بمظهر التجار. كما اعتادوا محاداة المركب لمعرفة عدد طاقمه، ونوعية سلاحه، وعدد مدافعه. وبعد التعرف على موطن المركب، كانوا يرفعون قصد تضليله أعلاما إسبانية أو فرنسية ليبدوا له كمواطنين مسالمين. وحينما تصبح المراكب على مرمى حجر، يبدأ علج من جنسية أصحاب السفينة



J.G. MANTEL 71



المستهدفة في مخاطبتهم بلغتهم لدفعهم إلى الثقة. وما أن يتأكد القراصنة من تفوقهم حتى يعرفوا بأنفسهم ويحثوا الطاقم على تسليم نفسه واعدين أفراده بمعاملة حسنة وبأقصى العقوبات في حالة المقاومة. وغالبا ما يعطي ذلك التكتيك أكله، ويعفي القراصنة من اللجوء إلى استعمال القوة.

وفي حالة ما إذا فضل طاقم السفينة المستهدفة المقاومة، يشرع الطرفان في تبادل طلقات المدفعية كما تم خلال مواجهة تمت قرب الجزر الخالدات، وصلنا عنها الوصف التالي، وإن كان يعود إلى فترة متأخرة:

«في طريقنا إلى الجزر الخالدات، أو بعبارة أدق فيما بين تلك الجزر والساحل الإفريقي، فاجأنا في مطلع النهار قرصان تركي مقيم بسلا هاجمنا بالسرعة التي مكنته منها أشرعته. ومن جهتنا وظفنا كل الأشرعة المتوفرة لدينا لنتمكن من الفرار. وبما أننا لاحظنا أنه بدأ يقترب منا، وأنه سيلتحق بنا بعد بعض ساعات من المطاردة، فقد تأهبنا للقتال. كنا نتوفر على اثني عشر مدفعا، وكان للقرصان ثمان عشرة قطعة. وحوالي الثالثة زوالا، وبعد أن تمكن من الاقتراب منا، شرع في مهاجمتنا بشكل مفاجئ: فعوض قذفنا بمدفعيته من الخلف كما كان ينوي ذلك، استعمل مدفعيته الجانبية، وشرع في محاذاتنا، وهو ما واجهناه بطلقات مدافعنا الثمانية. وبذلك اضطر إلى التراجع وهو يطلق قاذفات مدافعه وبنادق مائتين من محاربيه. صمد رجالنا ببسالة، ولم يمس أي أحد منهم، وهو ما جعل القرصان يحاول الهجوم من جديد، وما جعلنا نصمد أكثر. إلا ستين من رجاله انقضوا علينا وحاولوا اقتحام مركبنا مستعملين الفؤوس لقطع الحبال والصواري. واجهناهم بقوة بطلقات بنادقنا ورماحنا القصيرة وبقنابلنا وغيرها من الأسلحة. تمكنا مرتين من طردهم، إلا أنهم استطاعوا العودة. وفي الأخير، ولكي لا أطيل في ذكر هذه الحقبة الحزينة من قصتنا، اضطررنا إلى تسليم أنفسنا بعد أن شلت حركة مركبنا، وإثر موت ثلاثة من رجالنا وجرح ثمانية آخرين. حملنا المنتصرون إلى سلا، وهو ميناء خاضع للمسلمين».

كان اقتحام المراكب موكولا للجنود. ولإفزاع أعدائهم، وإضعاف روح المقاومة لديهم، كانوا يهاجمون تلك المراكب وهم يصيحون، وسيوفهم مشهروة وفؤوسهم مرفعوة. ولم تكن المواجهة تتوقف إلا باستسلام المهاجمين الذين كانوا آنذاك يعرضون، وخصوصا منهم القبطان ومساعدوه، لأسوء معاملة.

كان الأسرى يحملون إلى المركب القرصان، مكبلين في مجموعات من عشرة أشخاص. وآنذاك، كان كاتب المركب يحصر الغنائم في محضر. وفي حالة ما إذا كانت السفينة المغنومة لا تلائم القراصنة، كانت تترك أو تحرق بعد الاستيلاء على وسائل الملاحة بها من حبال وأشرعة ومراسي.

لم يكن الحظ يحالف كل محاولات القراصنة، إذ استطاعت بعض المراكب الإفلات أو قاومت بفعالية وتمكنت من النجاة.

كما أن المراكب الجهادية كانت عرضة لهجمات السفن الحربية الموجهة ضدها من قبل بعض الحكومات الأوروبية. ولم يكن بإمكانها آنذاك إلا الفرار أو الانجياح تفاديا للأسر وما يترتب عنه من انتقام وسوء معاملة.

كانت المراكب المستهدفة من قبل القراصنة من الدول المعادية للمغرب كإسبانيا والبرتغال، أو من تلك التي لا تربطها بسلا أية اتفاقية سلم. إلا أن القراصنة لم يكونوا يتورعون، خصوصا خلال



فترات تراجع مداخيلهم، في أسر سفن الدول الحليفة برفع أعلام الجزائر، وافتعال بعض الأسباب لأسر السفينة ومن فيها. كما كانوا يلجأون إلى الجزائر لبيع تلك الغنائم.

اقتصر المجال الذي شمله نشاط القراصنة في العموم على المنطقة الممتدة بين الجزر الخالدات وماديرا والأصور وسواحل إيبيريا، أي على منطقة شاء توزيع الرياح والتيارات البحرية أن تكون نقطة انطلاق وعودة السفن التجارية الرابطة بين أوروبا والعالم الجديد وإفريقيا. لذا كانت المراكب الإيبيرية ذات الحمولة الغنية أكثر استهدافا من غيرها. إلا أن السلاويين سرعان ما نقلوا عملياتهم بعيدا شمال المنطقة المذكورة.

وتقدم لنا شهادة علج إسباني أمام محكمة تفتيش الجزر الجالدات فكرة عن نشاط القرصنة التي كان يشارك فيها الرايس مراد. فخلال الهجوم الذي نظمه هذا الأخير على الجزر الخالدات، انطلق صحبة الرايس كلفاط من سلا في مركبين توجها صوب السواحل الإسبانية. وهناك أسرا مركبا هولنديا اكتفيا بنهبه دون أسر طاقمه. واستولوا فيما بعد على مركب إسباني محملا خمرا وعلى متنه ثلاثة عشر نفرا. وبعد أن اتجهوا جنوبا، استولوا قرب جزيرة Lanzarote على كرفيلا كانت في طريقها إلى أكادير، وكان على متنها عشرة رجال وثلاث نساء. وبعد ذلك توجهوا صوب جزيرة كاناريا الكبرى وأرسوا مركبيهما في ميناء صغير قصد التزود بالماء، وهو ما مكن العلج المذكور من الفرار.

وقد كان تحرك القراصنة داخل تلك المنطقة الشاسعة مرتبطا بتعاقب الفصول. فخلال فصل الشتاء كانت الرياح والأمواج العنيفة عند المصب تحول دون مغادرة السفن السلاوية للميناء مدة نصف شهر أو عشرين يوما. وكانت فترة نشاط القراصنة تمتد على العموم من شهر مارس إلى أواسط أكتوبر. ففي نهاية فبراير، كانت أولى المراكب تغادر الميناء في اتجاه المنطقة الممتدة بين المضيق وجنوب البرتغال. وابتداء من أبريل، كانوا يشرعون في الابتعاد شيئا فيشئا عن الساحل حسب الظروف المناخية وظروف الملاحة. وكانوا في ماي يتوجهون صوب السواحل الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية. وبالطبع، كان فصل الصيف يمثل أحسن مواسم القرصنة، إذ كان ذلك يسمح لهم بالاقتراب من السواحل. وكانت "الغليوطات" (galiotes) تفضل المناطق الممتدة بين المضيق ولشبونة. أما المراكب الشراعية، الأكثر خفة، فكانت تطارد السفن المساحلة، الرابطة بين الموانئ الإسبانية والبرتغالية. أما المراكب الضخمة من نوع chébecs وpolacres، فكانت تغامر في خليج Gascogne حيث كانت تبحث عن السفن التجارية الفرنسية. إلا أن المنطقة الممتدة بين الجزر الأطلنطية وضواحي لشبونة كانت تحظى بالأفضلية لديهم، إذ كانوا يحصلون بها على أهم الغنائم لكونها كانت تشمل طريق العودة من أمريكا والهند.

وباقتراب فصل الخريف، كانت المراكب القرصنية تبتعد عن الساحل وتتخذ اتجاهين: تتوجه مجموعة أولى صوب الشمال، بينما تقصد الثانية الجزر الخالدات. وفي آخر أكتوبر، كان الأسطول القرصني يلتحق بميناء الرباط.

واعتاد القراصنة خلال المواسم العادية البقاء بأعلى البحار لمدة خمسين يوما تجنبا لمشاكل الخروج من الميناء والدخول إليه. كانوا يبحرون في مجموعات صغيرة من مركبين أو ثلاثة تتعاون فيما بينها. وفي المعدل، اعتاد كل "رايس" تنظيم ثلاث عمليات في الموسم الواحد.

سرعان ما توسع مجال تحرك قراصنة سلا تبعا لتراكم التجارب لديهم. فقد كانوا لا يتوقفون عن استكشاف مناطق جديدة، يعينهم في ذلك علوج ينحدرون من تلك المناطق. وغنم السلاويون فيما بين 1625 و1631 غنائم كثيرة من مهاجمتهم للسواحل الإنجليزية والارلندية. وفي سنة



1627 وصل الرايس مراد إلى إيسلاندا، أقصى نقطة وصلتها المراكب القرصنية المغاربية. وسرعان ما أصبحت مراكب الصيد بمنطقة Terre Neuve بكندا مستهدفة، وأضحت تستطبق حوالي سنة 1637 نصف الأسطول السلاوي. وابتداء من سنة 1624، غامر السلاويون في اتجاه منطقة Nouvelle Ecosse الأمر الذي أدهش ملاحي ذلك الزمان.

و ـ محاصيل القرصنة

كانت الغنائم، المكونة من السلع والأدوات الملاحية والأسرى، تخضع فور إرساء السفن بالميناء لتقييم من لدن كاتب المركب بمحضر القبطان ومساعديه، وبحضور قائد المرسى ومالك السفينة وشركائه. وعلى إثر ذلك ، كان يشرع في البيع بالمزاد العلني. ومثل الأسرى أعلى قسط مما يحصل عليه من البيع. وكانت الأرباح توزع بين المساهمين في الحملة حسب مقاييس معروفة. واختلفت قيمة الغنائم حسب الفصول والسنوات. فقد استولى الرايس علي بن علي خلال موسم 1622 على مركب هولندي بلغت قيمته 160000 فلورين. وبعد سنتين استولى الحاج علي على سفينة هولندية أخرى لم تتجاوز قيمتها 7900 فلورين. أما فيما بين 1652 و1666 فقد أسرت خمس سفن هولندية أخرى بقيمة 191000 فلورين.

وهكذا مثل بيع تلك الغنائم بانتظام موردا رئيسيا بالنسبة لمدن مصب أبي رقراق، ساهم في بروز طبقة أرسطوقراطية اغتنت من القرصنة وما يرتبط بها. فقد كتب الأمرال الفرنسي de Razilly في تقرير مؤرخ في 26 نونبر1626 أن مجاهدي سلا وتطوان« شرعوا في تسليح مراكب منذ ثمان سنوات، وتمكنوا من أسر ما ينيف عن ستة آلاف مسيحي وأكثر من خمسة عشر مليون ليبرة تكبدت فرنسا ثلثها».

واغتنت المدينة كذلك من جراء ما كانت تذره عليها جماركها التي بلغت مداخيلها فيما بين 1629 و1639 سبعة وعشرين مليون دوقا. وربما تجاوزت تلك المداخيل حسب بعض التقديرات ما كان يدخل بيت مال المنصور الذهبي من البلاد كلها.

كانت السلع المعروضة للبيع مجلوبة من مختلف بقاع العالم. وبما أنها كانت موجهة لأوروبا، فإنها لم تكن تناسب بالضرورة حاجيات الاستهلاك ببلادنا، مما كان يعجل بإعادة تصديرها إلى تلك القارة. ولعب اليهود، الذين كانوا على اتصال بإخوانهم في الدين في شمالي غرب أوروبا، وخصوصا بهولندا، دور الوسيط الضروري في عمليات البيع، وكانوا لذلك أكبر مستفيد منها. إلا أن القناصلة والتجار الأوروبيين المستقرين بالرباط وسلا، اهتموا بذلك النشاط واستفادوا كثيرا منه. فقد سبق للأسير مويط أن فضح تهافت أولئك التجار على تلك الصفقات:« لقد اغتنى القناصلة والتجار من شراء جل الغنائم التي يستولي عليها القراصنة من المسيحيين. فهم يشترونها بأثمان بخسة قبل أن يصدروها إلى أوروبا ليربحوا منها أربع مرات ثمن الشراء، وأعني بذلك ما هو غير صالح بالبلاد كما هو الشأن بالنسبة لجل السلع المجلوبة من أمريكا، كالخمور وماء الحياة، والجعات والحوامض والزيوت واللحوم والأسماك المجففة».

وقد مثل الأسرى أهم سلعة، وأكثرها رواجا. وارتفعت أعدادهم بمدن المصب باطراد. فقد قدر فرنسي عددهم سنة 1629 بستة آلاف شخص، كان الفرنسيون يمثلون نسبة مهمة منهم. وقدرت بعض المصادر عدد الأسرى الإنجليز سنة 1625 بألف وخمسمائة نفر. إلا تلك الأعداد لم تبلغ ما وصلت إليه بالجزائر أو تونس لكون عمليات البيع والتحرير كانت تتم بسرعة، إما بتطوان أو في مدن المصب. فقد تعاقبت على تلك المد ن وفود الرهبان والموفدين من لدن الحكومات





الأوروبية قصد تحرير أسراهم. وكان ثمن الشراء والتحرير مرتبطا بعدة عوامل أهمها الوضع الاجتماعي للأسير، وحالته الصحية وسنه.

كان الأسرى يخضعون فور استسلامهم بمراكبهم لعملية فرز حسب المعايير السابقة. فقد كان ترجمان المركب يحرر لوائح تتضمن إسم الأسير وسنه وجنسيته ومهنته وتاريخ الأسر والسفينة التي كان فيها. وكان الأسرى يوجهون فور وصولهم إلى الميناء إلى المطامير التي كان جزء منها مخصصا لذوي الجاه منهم. وكان أولئك الأسرى يعانون من ظروف قاسية تتمثل في الجوع والبرد وسوء المعاملة ومختلف أنواع الحرمان. إلا أن تلك الظروف لم تكن أسوء مما كان الأسرى المسلمون يعانون منه.

كان بيع الأسرى يتم بالمزاد العلني على الضفة اليسرى للنهر، أسفل القصبة. وكان المقتنون يعتبرون ذلك استثمارا قد يجنون منه ربحا معتبرا بعد التحرير. لذا كان أشخاص كثيرون يساهمون، كل حسب مستواه، في شراء أولئك الأسرى. ففي سنة 1670 ساهم سبعة أشخاص في شراء أسير فرنسي. وخلال نفس السنة، اشترك أربعة أفراد في شراء الأسير مويط، كان نصيب واحد منهم النصف.

وفي انتظار حصولهم على مبالغ الانعتاق، كان الملاك يكرون أسراهم لمن هو في حاجة إلى خدماتهم وسواعدهم. وكان الإقبال كبيرا على ذوي التجارب في النشاط البحري والعسكري. ووظف كثير منهم في أوراش بناء السفن وفي المزارع.

بلغ ثمن التحرير الذي كان الرهبان يدفعونه 600 ليبرة. وكان اليهود أكثر الوسطاء نشاطا في هذا الميدان. ولكي يعجل الأسرى بتحرير أنفسهم، كانوا يكاتبون حكوماتهم وذويهم للإسراع بجمع ما يتطلبه الأفتداء. واستطاع عدد من هؤلاء الأسرى استرجاع حريته باعتناق الإسلام.

3: ردود فعل الدول الأوروبية

من الأكيد أن النشاط الجهادي القرصني أضر بالأنشطة الاقتصادية الأوروبية وانعكس سلبا على المجتمع بشكل مباشر، بما تطلبه تحرير الأسرى من تضحيات وصلت إلى حد الإفلاس بالنسبة لبعض الأسر، أو غير مباشر بما سببته من ركود بالمدن.

لذا سرعان ما شرع أصحاب السفن التجارية ورياسها في اتخاذ الاحتياطات اللازمة تفاديا للخسارة أو على الأقل رغبة في التقليل منها. فقد سلحوا مراكبهم وأصبحوا يتفادون الملاحة منعزلين، ويعملون على ضمان حماية أسطول حربي. كما نظمت الحكومات الأوروبية -بعد تزايد شكاوي مواطنيها- حراسة دائمة بالمناطق التي ينشط بها القراصنة.

إلا أن كل تلك الاحتياطات لم تفد أمام خبرة القراصنة وحنكتهم، وأمام سرعة مراكبهم وما كانوا يستفيدون منه من مساعدات، خصوصا بالموانئ الهولندية.

حاولت القوى الأوروبية المتضررة منع القراصنة من مغادرة الميناء بضرب حصار عليه، وبمطاردة سفنهم ومحاولة الاستيلاء عليها أو على الأقل تحطيمها. إلا أن ذلك لم يكن عملا سهلا رغم التفوق العسكري الواضح للأوروبيين. فقد كان القراصنة متفوقين في ميدان التكتيك، وكانوا يرفضون المواجهة والحرب، معتمدين في ذلك على سرعة مراكبهم، وسهولة قيادتها. كما أن ظروف الملاحة قبالة مصب أبي رقراق، ووجود رياح غربية عاتية وأمواج عنيفة، حالت دون اقتراب الأساطيل الحربية من الساحل، وحتمت عليها البقاء بعيدا عنه تفاديا للغرق والجنوح،



الأمر الذي قلل من إمكانية استعمال المدفعية، ومن جدوى الحصار، وكان يحتم على السفن الحربية مغادرة المنطقة عند اقتراب فصل الخريف.
ورغم ذلك اضطرت كل من فرنسا وهولندا وإنجلترا إلى إرسال سفن قبالة الرباط لمعاقبة قراصنتها.
فقد أرسلت الدولة الأولى سبع سفن حربية وخفارتين تحت قيادة الفارس Isaac de Razilly وصلت قبالة "سلا" يوم 20 يوليوز1626. كانت المهمة الموكولة للحملة إرغام الديوان على تحرير الأسرى الفرنسيين وإمضاء معاهدة سلم. وأمام تعنت المجاهدين الذين طالبوا بمائة مليون ليرة ومائة مدفع، ضربت السفن الفرنسية ابتداء من 6 غشت حصارا على الميناء وأسرت أو أحرقت أو حطمت سبع سفن سلاوية كانت إحداها من الحجم الكبير.
وبعد حصار دام ثلاثة أشهر، اضطر "السلاويون" يوم 2 أكتوبر إلى توقيع هدنة لمدة خمسة أشهر. إلا قائد الحملة اضطر إلى رفع الحصار قبل التوصل بالأسرى.
وخلال السنة التالية، عادت المراكب الحربية الفرنسية يوم 27 يوليوز إلى الرسو قبالة الميناء وفاجأت في نفس اليوم ثلاثة مراكب تمكنت من أسرها. وتمخضت المفاوضات عن تحرير مائتي أسير فرنسي وتعيين قنصل بالرباط.
وبما أن قراصنة سلا لم يكونوا يعتبرون أنفسهم ملزمين باحترام ما تم الاتفاق بشأنه مع السلطة السعدية بمراكش، فإنهم استمروا في مهاجمة السفن الفرنسية. لذا توصل Henri d'Esca-bleauيوم 20 أبريل 1635 بالأمر بالتوجه صوب مصب أبي رقراق. وهناك تمكن من أسر سفينة وغنيمتها وأسر طاقمها المكون من مائة شخص وتحرير خمسين أسيرا إنجليزيا. إلا أن الفرنسيين، الذين لم يتمكنوا من توظيف تفوقهم العسكري، اضطروا إلى التفاوض. واضطر القراصنة إلى الاعتراف بمقتضيات المعاهدة الموقعة بين سلطان مراكش وهولندا سنة 1610، إلا أن ذلك لم يدم طويلا.
ضطر الإنجليز بدورهم إلى الرد على هجمات القراصنة. فقد وصل قبالة الرباط وسلا William Rains-borough يوم 3 أبريل 1637 واستغل الحرب بين الأندلسيين والعياشي لمد يد المساعدة لهذا الأخير بوضع مدفعيته وجنوده رهن إشارته. وقد أمضى العياشي معه معاهدة سلم ومكنه من الأسرى الذين كانوا بمدينة سلا. وبذلك غادر المنطقة في نهاية غشت 1637.
واضطرت هولندا بدورها إلى الرد على تصرفات القراصنة. فقد أرسلت Joris Van Cats سنة 1649 لمحاصرة مصب أبي رقراق والمعمورة ومطاردة القراصنة فيما بين السواحل المغربية والمضيق وجنوب البرتغال. وقد تمكن من أسر وتخريب خمسة مراكب قرصانية. وأرسلت حملة أخرى سنة 1650. وبذلك اضطر الديوان إلى التفاوض وإلى إمضاء معاهدة يوم 9 فبراير1651. إلا أن القراصنة تجاهلوها عدة مرات، مما دفع بهولندا إلى إرسال أسطولين لحماية السفن التجارية ومطاردة المراكب القرصنية. وإثر أسر هولندا لمجاهدين بحريين اعتقل القنصل الهولندي بالرباط. وردا على إعلان الحرب ذاك، أرسلت هولندا إلى الساحل المقابل للمصب يوم 21 يونيو 1655 ثمان سفن حربية بهدف إرغام القراصنة على تحرير الأسرى والممتلكات ومراجعة شروط اتفاقية 1651.
ورغم أن إنجلترا كانت شريكا تجاريا مهما للرباط، فإن ذلك لم يمنع القراصنة من التعرض لسفنها. لذا اضطرت تحت ضغط الرأي العام إلى التحرك وإيفاد أسطول حربي في صيف1656 تحت قيادة Robet Blake بهدف تحرير الأسرى الإنجليز وإرغام القراصنة على توقيع معاهدة سلم شبيهة بما ألتزم به قراصنة الجزائر وتونس خلال السنة الماضية. إلا أن السلاويين لم يوقعوا الهدنة



ولم يسلموا الأسرى إلا في يوليوز 1657. وبعد تماطل وتسويف، وقعت الرباط كذلك معاهدة مع هولندا يوم 10 غشت 1658.
وبعد دخول قوات المولى الرشيد إلى الرباط وسلا، واستئناف النشاط القرصني، حاولت دول أوروبية كفرنسا القيام بعمليات تأديبية ضد القراصنة. فقد كلف لويس الرابع عشر الكونت D'Estrées، الأميرال المساعد لفرنسا خلال سنتي 1670 و 1671، بضمان أمن سفن بلاده التجارية، وبمطاردة المراكب القرصنية. وخلال سنة 1672 كلفChâteau-Renaud بنفس المهمة.

وبما أن القوى الأوروبية عجزت عن منع القراصنة من مغادرة مينائهم أو العودة إليه، اضطرت الى تنظيم دوريات فيما بين رأس سبارتيل وأكادير لمطاردة المراكب القرصنية ومنعها من الالتجاء إلى الموانئ التي كانت تحتمي بها في حالة المطاردة أو الحصار فيما بين أصيلا وأكادير. وكانت التعليمات الرسمية تحث قواد تلك الحملات التاديبية على «البحث في كل مكان عن قراصنة سلا ومحاربتهم وأسرهم أو إغراق سفنهم». وكان المكلفون بذلك العمل يحاولون أسر القراصنة للسببين التاليين: «إن أسر قرصان يمثل [بالنسبة للمجاهدين] خسارة أكبر عشر مرات من إتلاف سفنهم لأنها لا تنقصهم، على عكس البحارة والسلاح. كما أن بإمكان جلالتكم أن تحصل من أسرهم على عدد كبير من العبيد لقواديسها، وهو ما يتعذر عليه الحصول عليه من إتلاف سفنهم وإرغامها على الجنوح».

إلا أن كل الإجراءات التي اتخذتها القوى الأوروبية، رغم ما تطلبته من مصاريف باهظة، والتي نفذت بتعليمات شخصية من الملوك أو رؤساء الحكومات، لم تعط إلا نتائج محدودة. لم تنجح تلك الإجراءات إلا في أوقات محدودة، كما تم خلال صيف 1681 من منع المجاهدين من الالتحاق بأعالي البحار. فقد استمرت المراكب السلاوية في الانسلال صوب البحر بمحاذاة الساحل التي لم تكن المراكب الحربية تجرؤ على الاقتراب منه، كما تمكن عدد من القراصنة من التسلل نحو الميناء رغم الحصار المضروب عليه.

لم تفد قنبلة المدينة من المراكب الحربية نظرا لبعد هذه الأخيرة ولعنف الأمواج. ورغم أن الأميرال d'Estrées عرض مدينة الرباط لقصف مكثف إذ أنها توصلت خلال ساعة ونصف فقط بألف ومائة قذيفة، فإن ذلك لم يتمخض إلا عن «إخلاء المسلمين لبرج صغير بمحاذاة الساحل».
ومن جهة أخرى، فشلت المحاولات القليلة للتسلل إلى الميناء قصد إحراق السفن القرصنية الراسية به. كما لم تتم أية محاولة لإنزال الجيوش إلى الرباط قصد اقتحامها ودخولها عنوة، وذلك نظرا لما يكتنف العملية من مخاطر. لذا كان المسؤولون الأوربيون قلقين من النتائج الهزيلة التي تمخضت عنها عملياتهم التأديبية.
وأمام فشل اللجوء إلى القوة، حاولت الدول الأوروبية إقناع القراصنة عن طريق التفاوض والاتصالات الدبلوماسية بالامتناع عن التعرض لسفنها. إلا أن القراصنة لم يكونوا ليتوقفوا عن عمل كان مصدر غناهم. لذا لم يكونوا يتنازلون بسهولة أو يتعهدون، وكانوا يطيلون عن قصد المفاوضات ويماطلون في توقيع الاتفاقيات ربحا للوقت.



الخـــــــــــــاتمـــــــة

تمكنت القرصنة "السلاوية" خلال النصف الأول من القرن السابع عشر من طبع الذاكرة الجماعية الأوروبية عموما، والإيبيرية على وجه الخصوص، ومن إلحاق أضرار بليغة بتجارة أوروبا. وقد أرجع عدد من المؤرخين الإنجازات التي حققتها القرصنة السلاوية إلى استقرارالعلوج الأوروبيين بمصب أبي رقراق. إلا أن ذلك الاستنتاج غير دقيق ويحتاج إلى مراجعة.

صحيح أن السواحل المغربية لا تتوفر إلا على عدد قليل من المرافئ الطبيعية، وأن الأزمة العامة التي عرفتها البلاد بعد النصف الثاني من القرن الرابع عشر، والتي تفاقمت بسبب الغزو الإيبيري لجل السواحل المغربية، أسهمت في إبعاد المغاربة أكثر عن البحر.

إلا أن الموقف المذكور لم يكن وليد "طبع" معين، ولم يكن مرتبطا ب"جنس"ما، بل كانت نتيجة مباشرة للضغط المبكر-والذي دام طويلا-، الذي فرضته أوروبا على بلادنا. لم تكتف الدول الأوروبية بمنع بيع الخشب ووسائل الملاحة للمغرب، بل انتقلت بعد 1415 إلى احتلال أغلب الموانئ المغربية. وتولد عن ذلك الاعتداء بروز عدد من المراكز الجهادية القرصنية.

وقفنا من خلال ما سبق على إنجازات "السلاويين". إلا أن تلك الإنجازات لم تصل مستوى ما تحقق بالجزائر. كما أن القرصنة "السلاوية" كانت دون مستوى القرصنة المالطية أو الفرنسية.

لم يكن للغنائم المحصل عليها أي انعكاس إيجابي على الاقتصاد المغربي وعلى وسائل الانتاج به. فهي لم تكن وليدة نشاط محلي معين. وقد سبق لنا أن اشرنا إلى إعادة تصدير جل الغنائم نحو أوروبا لعدم ملاءمتها لحاجيات المجتمع والاقتصاد المغربين. وكانت أرباح القرصنة تستثمر في اقتناء الأسرى وشراء المراكب.

لم يسمح الازدهار الذي عرفه الجهاد البحري بمصب أبي رقراق بترسيخ العادات البحرية في المجتمع المغربي. فما أن أصبحت الضغوط الأوروبية كبيرة، وما أن احتكرت الدولة ذاك النشاط وأبعدت المبادرة الفردية عنه حتى تراجع اهتمام "السلاويين" به وأصبح مجرد ذكرى لم تنفع المحاولات الرسمية في عهد المولى إسماعيل أولا، وسيدي محمد بن عبد الله ثانيا في إنعاشه. وبماطردتهم للقراصنة "السلاويين" وأسرهم، حرم الأوروبيون ذلك القطاع من أهم منشط له، البحارة والرياس الذين قل عددهم سنة بعد أخرى.



ملحق

تعريب بعض جلسات محاكمة مامي، العلج الجنوي الأصل:

« في اليوم التاسع من شهر أبريل من سنة ألف وخمسمائة وواحد وخمسين، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيد المقدس، المحترم، الأب (Frey Jorge de Santiago)، وكذا السادة مندوبو محكمةالتفتيش المقدسة، وأمروا بالمثول أمامهم (António Fernandez)، المزداد بمدينة (Portalegre)، والمقيم بهذه المدينة منذ شهرين، والذي كان يسكن من قبل بطنجة، وأمروه بأداء القسم بالأناجيل المقدسة، وسألوه عما إذا سبقت له معرفة شخص يسمى (Vicente) كان يعيش بين المسلمين وأسر بمركب ب: "الغرب".

أجاب: إنه يعرفه بالفعل، وقد شاهده اليوم بسجن محكمة التفتيش هذه، لما كان هو (António Fernandez) يتحدث مع (Inácio Nunez)، وتعرف عليه لأن المصرح كان أسيرا لدى المسلمين منذ ثمان سنوات تقريبا، بعد أن استولوا على مركب كان فيه، وأنه لما هم المسلمون بأسره، ألقى المصرح بنفسه في البحر، فلحق به (Vicente) المذكور سباحة وأمره بتسليم نفسه لكي لا يقتلوه، الأمر الذي نفذه. وقد حمل (فيسانت) المصرح إلى اليابسة وحال دون قتله من لدن المسلمين، وأحسن إليه خلال مدة إقامته هناك، أي نصف سنة تقريبا، إذ كان يعطيه المال والقوت، وأشياء أخرى. وقد استولى للمصرح على أدعية للسيدة مريم كان يحملها، ورفض إرجاعها له، وقال له بأنه يرغب بدوره في حفظها. كما سمعه يتحدث مع المسيحيين الذين كانوا بتطوان. ولم يكن (فيسانت) متزوجا هناك، وكانت له حظوة لدى "الرايس" سيده، الذي كان يرغب في تزويجه بإحدى بناته. ويبدو له أنه كان آنذاك شابا تناهز سنه السادسة أو السابعة عشرة. وكان (فيسانت) المذكور يقول بأنه لا يرغب في الزواج، وأنه ينتظر فرصة، ولم يوضح له أكثر. ولم يقل غير هذا، وذكر أن (فيسانت) المذكور صديقه، وأنه أحسن إليه كما سبق أن صرح بذلك. وحررته أنا، (António Rodriguêz).

ثلاثة إمضاءات.

وفي اليوم التاسع من شهر أبريل من سنة ألف وخمسمائة وواحد وخمسين، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان: الدكتور(Ambrósyo Campello)، والسيد المجاز(Jorge Gonçalvez)، مندوبا محكمة التفتيش المقدسة، وأمرا بالمثول أمامهما (Joam Antam) المقيم حاليا بهذه المدينة، والذي تنصر خلال السنين الأخيرة.

وبعد أدائه القسم بالأناجيل المقدسة، سألاه عما إذا كان يعرف شخصا يسمى (فيسانت) يوجد هنا رهن الاعتقال بهذه السجن، أسر خلال السنة الفارطة بالغرب، والذي سبق له أن أسلم. قال إنه يعرفه بالفعل، وقد سبق له أن رآه بالجزائر منذ عدة سنوات، حيث كان يسمى آنذاك (مامي) (Memy)، وكان في ملكية تركي، وكان آنذاك صبيا لا تتجاوز سنه حسب تقديره ثلاث أو أربع عشرة سنة. وقد شاهده فيما بعد بالعرائش في ملكية مسلم، وكان قد التحى. وكان يرافق سيده في مركبه، وكان هذا الأخير يثق فيه ويأتمنه على متاعه.

سئل عما إذا كان يعلم بزواجه هناك. أجاب بالنفي، وبانه لم يعلم بزواجه آنذاك، وقد صاحبه مدة ثلاث سنوات. وكان شخصا طيبا لا يؤذي أحدا، ولن يوجد أحد يقول فيه سوءا. وكان بمركب سيده المذكور أسرى مسيحيون شاهده يعاملهم معاملة حسنة. وحررته أنا،



(Paulo da Costa) . وعن علاقته بالمتهم، صرح بأنه كان صديق (مامي) المذكور، وأضاف أنه شاهده بهذه السجن مرة أو مرتين بعد اعتقاله .

ثلاثة إمضاءات

و في اليوم السادس من شهر غشت من السنة الجارية ، ألف وخمسمائة وخمسين، بقرية (لاغوش)، بإقامة السيد الأسقف (Dom João de Mello)،أسقف الغرب، أمر السيد المذكور رجلا أسر رفقة مسلمين برأس (Sam Vicente) بالمثول أمامه، وطرح عليه الأسئلة التالية :

سأله أولا عن اسمه، فقال : (فيسانت)، وإنه مسيحي أسره أتراك بقرطاجنة في مركب جنوي، حيث كان في خدمة شخص لكونه كان يتيما . ومن هناك حملوه إلى الجزائر . وقد أسلم خلال نفس السنة التي أسر فيها، وختن . ومنذ ذلك الوقت وهو في خدمة سيده بالسفن . وقد قال له مؤخرا جنوي مسيحي إنه أسر منذ ثمان عشرة سنة . وعاش من ذلك التاريخ مسلما متمسكا بالفرائض الإسلامية، بحيث صام شهر رمضان منذ بلوغه، وكان يرافق سيده إلى المسجد ويفعل كل ما يفعله .

سئل عما إذا كان يحمل في عنقه صرة من تراب [قبر] مسلم، فأجاب بالنفي، وبأنه لا يتذكر ذلك .

سئل عما إذا كان يحفظ صلاة : (Pater Noster) و (Ave Maria)، فأجاب : نعم، ورتلهما . وذكر أنه لم يكن يرددهما بانتظام، مما جعله ينساهما .

سئل عما إذا كان على اتصال بالمسيحيين، وعما إذا كان يحسن إليهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فرد بأنه اعتاد بالطبع الإحسان للجميع (و . 10ظ .) سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو يهودا .

سئل عما إذا سبق له أن أسر مسيحيين، وعما إذا كان قد أحسن إليهم . أجاب بأنه ساعد، سواء بالمشرق أو من المضيق إلى هذه الربوع، في أسر مسيحيين كثيرين إلى حد يتعذر عليه تذكرهم، وأنه كان آنذاك مرفوقا باستمرار بسيده، باستثناء هذه المرة التي اعتقل فيها الآن، والتي كان يرأس خلالها المركب . [وأضاف] أن سيده لم يرافقه خلال رحلة أخرى، وإنما حمل معه مغربيا صاحبه للقيام بما يلزم، وأنه يتمنى أن يسجل ضمن حسناته شراؤه الخبز والجبن والماء العذب لأولئك الأسرى .

سئل عما إذا كان يعتبر نفسه خلال كل المدة التي قضاها بين المسلمين مسيحيا . قال بأنه كان يعتبر نفسه دائما مسيحيا، وأنه وإن كان ظاهره مسلما، فإن باطنه مسيحي .

سئل عما إذا سبق له أن أسر مسيحيا يسمى (Diogo Rodriguêz)، يقيم حاليا ب : (Puerto de Santa Maria) ، لما كان عائدا من سلا، وحمله معه بضعة أيام في مركبه . أجاب أنه خرج يوما بالفعل من سلا في مركب رفقة سيده، وترك هناك (Diogo Rodriguêz) المذكور رفقة "كرفيلته" ، بينما التحق هو في مركبه بالعرائش . وبالمضيق التقى (Diogo Rodriguêz) المذكور، ولما هم هو وسيده بالاستيلاء على الكرفيلا (و . 11و)، صاح المذكور : « مامي، مامي، لماذا تريد إيذائي، ألا يكفيك التسريح الملكي الذي أحمله؟ » . وآنذاك ألقى (Diogo Rodriguêz) المذكور بالقارب في اليم والتحق بهم . وبعد أن تشاور [مامي] وسيده مع باقي المسلمين بشأن إطلاق سراحه ، قرروا اعتقاله لكي لا يخبر سكان قادس بوجودهم بتلك الربوع . لذا حملوا معهم (Diogo Rodriguêz) المذكور وصبيا كان برفقته، وبعثوا



بالكرفيلا إلى العرائش حيث اقتادها إلى هناك ثلاثة مسلمين بقوا في انتظارهم إلى حين عودتهم. وما أن عادوا إليها حتى أطلقوا سراح (Diogo Rodriguêz) المذكور ومرافقه وكرفيلته. ومن هناك توجهوا إلى قادس دون أن يسلبوه شيئا أو أن يلحقوا به أي أذى.

سئل عما إذ كان يتذكر أن مسيحيين عابوا عليه بعض المرات إساءته إليهم رغم أنه مسيحي، ومن أبوين مسيحيين. قال بأن كل ما كانوا ينصحونه به هو عمل الخير كلما أكمنه ذلك، والفرار إن أمكن مع المسيحيين، وكانوا يشددون على أن الملك سيحسن إليه.

سئل عن اسمه الإسلامي. قال إن اسمه المسيحي هو (فيسانت)، وأنهم سموه يوم أسره (مامي)، وهو الاسم الذي احتفظ به إلى الآن (و.11ظ.).

سئل عن الغاية التي جاء من أجلها لهذه الربوع خلال هذه الرحلة الأخيرة، فقال إن قائد سلا بعثه صحبة هؤلاء المسلمين البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين للمضيق قصد محاولة أسر من يمكنه أن يطلعهم على مآل السفينة التي أسرت له ب(Tavira)، وأنه لما وصل للمضيق واجهته الرياح الشرقية بعنف، إلى حد تعذرت عليه العودة إلى سلا أو العرائش، الأمر الذي فرض عليه الملاحة بهذه الربوع. ولما شاهد الساحل قبل محاداة [مدينة] (Faro)، حاول الاقتراب من اليابسة، إلا أن الكرفيلات طاردته، ففر خلف الرأس، ونزل إلى اليابسة، لا خوفا منها، أو من الرياح الشرقية، ولكن لاعتقاده أنه لن يتعرض لأي أذى طالما أنه مسيحي. وأضاف أن أربعة أو خمسة من المسلمين المرافقين له ممن يمكن افتداؤهم بالمال، ويمكن أو يبقوا في ملكية الملك إلى حين افتدائهم.

سئل: إذا كان صادقا في النية التي ادعى، فلماذا لم يفعل ذلك من قبل، علما بأنه أتى عدة مرات إلى هذه المنطقة، وحاداها دون أن يعمل على الالتحاق بها، وعما إذا كان قد رأى الكرفيلات، وعن السبب الذي جعله يفر منها. قال: لخوفه من أن تغرق الكرفيلات سفينته، أو أن يقتله بحارتها، وأنه لم ينزل إلى اليابسة في مكان آخر لأن الوقت كان نهارا، ولأنه خاف أن يقتلوه.

سئل عن الدين الأسمى والأفضل في نظره، أهو الدين المسيحي أم ملة محمد، وعن الدين الذي ينوي الإيمان به واتباعه؟ أجاب بأنه يبدو له أن الدين المسيحي أفضل، وأنه يرغب في أن يكون مسيحيا وأن يعيش كذلك (و12و.).

سئل: إذا كان يرغب فعلا في العيش بتلك الصفة، فكيف يبرر تمسكه بالإسلام إلى اليوم. قال بأنه ترجى سيده بأن يسمح له بافتداء نفسه، وقد اقترح عليه مائة وعشرين دوقة بكل من تطوان والجزائر، إلا أنه رفض، وتعذر عليه الفرار.

سئل عن الأشخاص المسيحيين الذين يعرفهم، والذين قد يكونون سمعوه يعبر عن رغبته في افتداء نفسه والعودة إلى بلاد المسيحيين، أو شاهدوه يحسن إلى هؤلاء، والذين يمكنهم أن يشهدوا على ذلك. قال: إنه لا يعرف بهذه البلاد أحدا يمكن أن يفعل ذلك.

سئل عن سنه، ومسقط رأسه، فرد بأن البعض يقولون له بأن سنه تبلغ الثانية والعشرين، وأن آخرين يقدرونها بأكثر، وأنه غير متيقن من ذلك. ويبدو من مظهره أنه ابن الثلاثين سنة تقريبا. وأضاف أنه من جنوة. ولم يقل غير هذا، كما أنه لم يسأل أكثر مما ذكر. وحررته أنا، (Francisco Jorge)، المدرس بمدرسة أسقفية شلب، وذلك بأمر من السيد الأسقف(...).

ثلاثة إمضاءات



و في اليوم السادس من شهر غشت الجاري، من سنة ألف وخمسمائة وخمسين ، بقرية (La-gos)، حضر (Diogo Balhestro)، القشتالي، الذي يدعي أنه من (Puerto de Santa Maria)، ومثل أما م السيد الأسقف، (Dom João de Melo)، أسقف الغرب، وقال إنه يعرف معرفة جيدة علجا يحتجزه السيد الأسقف المذكور ببيته، أسر خلال الأيام الأخيرة، وأنه يعرف الأضرار التي ألحقها بالمسيحية. وفور ذلك أمره السيد المذكور بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضع عليها يده، وذلك لكي يقول الحق بشأن كل ما يعرفه عن القضية، وعما سيسأل عنه.

قال بعد ذلك بانه كان في الأسر بسلا خلال ستة أشهر، وهناك تعرف على العلج المذكور الذي كان يحمل إسما إسلاميا هو (مامي). وقد أخبره علج آخر كان يقيم هناك ويسمى (علي)، وكذا نجار يسمى ("المعلم" مانويل)، كان من مسقط رأس العلج المذكور، بأنه من أصل مسيحي، وأنهما يعرفان أبويه، وأن سنه لم تكن تتجاوز الثانية عشرة يوم أسره، وأن (مامي) العلج المذكور دفعته حقارته وتمسكه بالإسلام يوما إلى مغادرة سلا على رأس سفينة كان يقودها، والاستيلاء على كرفيلتين كانتا محملتين قمحا أرسله الملك، عاهلنا، إلى مازيغن، وعاد بهما في نفس اليوم، وأسر بهما ستة عشر نفرا أو أكثر، أكره صبيين منهم على اعتناق الإسلام. (و.14ظ.) وبينما كان أحد الصبيين يوما يأكل مع الشاهد ومع مسيحيين آخرين، أقبل (مامي) المذكور وأحد مسؤولي المسلمين وجرا الصبي من شعره عقابا له على تناوله الطعام مع النصارى. وفي أحد الأيام، نقل المسلمون مركبا من فاس إلى سلا عبر نهر المعمورة، وما أن عاد مامي وسيده حتى شرعا في شتمه ونعته بالكلب، وقالا له بأنه يصلح السفن، وبمقدوره أن يسد ثقوب ذلك المركب ويمنع تسرب الماء إليه، إلا أنه يدعي عدم القدرة على ذلك، وأنهم أصلحوه دون عونه. وشاهد مرة أخرى دخول (مامي) وسيده في مركبين بعد أن استولوا على سبعة أو ثمانية مراكب من (سان لوكار) وقادس. وكان سيده قد وضع كل الأسرى في كرفيلا محملة خمرا وكلف (مامي) المذكور بالعودة بها إلى سلا، وهو ما لم يتمكن منه بسبب الرياح التي أرغمته على التوجه إلى العرائش حيث انتظر سيده. وقد لام الشاهد ومسيحيون آخرون كانوا هناك (مامي) المذكور على عدم مساعدته للنصارى على الفرار طالما أنه قادر على ذلك ، فسبهم ونعتهم بالكلاب وقال لهم بأنه مسلم وليس مسيحيا، وأنه يتعيش من عمله. وسمعه عدة مرات يردد بأنه سيأسر كل المسيحيين وسينقلهم جميعا إلى بلاد البرابرة. وفي مرة أخرى، وبينما كان (مامي) المذكور يأكل مع الشاهد وأخيه، سقطت من عنقه صرة كان بها قليل من التراب يتخذها تميمة، فسأله الشاهد عنها، فرد عليه (مامي) المذكور بأن بها ترابا من قبر(و.15و.) ولي مسلم مدفون بالمعمورة، وأن من يحمل ذاك التراب لن يأسره المسيحيون ولن يغرق. ولما كان (Diogo Rodriguêz)، المقيم ب(سانتا ماريا) محجوزا بسلا هو ومركبه، توصل بالترخيص الملكي قصد التوجه إلى قشتالة، فشرع في التأهب للخروج من هناك. وما أن غادر الميناء حتى لحق به (مامي) المذكور واعتقله واقتاده إلى العرائش حيث ترك مركبه بمن كان معه، وحمله معه مدة خمسة عشر يوما أكرهه خلالها على إطلاعه على الموانئ والمناطق التي يمكنه مباغتتها. ، وذلك قبل أن يرجعه إلى العرائش ويعيد له مركبه. وغادر مرة أخرى سلا قصد الاستيلاء على كرفيلا كانت تبحر بمحاداة المدينة،إلا أنه عجز عن ذلك لسوء الأحوال الجوية. ولما عزم على دخول الميناء، غرق كل من كان معه لعنف الأمواج، ولم ينج أحد غيره.



سئل عن علاقته بالمعني بالأمر، فقال بأنه لا يكنُّ له أي عداء ، وإنما قال الحقيقة، وإن كان يلومه على إساءته للمسيحيين رغم أنه منهم. وحررته، أنا، (Francisco Jorge)،المدرس بالمدرسة، بكتدرائية (شلب) ، وذلك بأمر من سيادته.
إمضاءان

و في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر من سنة ألف وخمسمائة وخمسين، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان المندوبان وأمرا بالمثول أمامهما (فيسانت) الجنوي، المعتقل بسجن محكمة التفتيش المذكورة، والذي أرسله منذ أيام السيد أسقف الغرب بعد أسره هناك بصفته علجا. وبعد امتثاله، أمراه باسم السيد المسيح وأمنا الكنيسة المقدسة أن يطلب العفو عن خطاياه، وأن يعترف بها كاملة، ذلك أنه يعلم مدى الإساءة التي ألحقها بالسيد المسيح، والضرر الذي ألحقه بالمسيحية.
قال: لقد أسلم ببلاد الترك، بالجزائر، بعد أسبوع من أسره، وهناك غيروا له الاسم واللباس. وذكر أنه كان يسمى (فيسانت)، وأنهم أطلقوا عليه اسم (مامي)، وحلقوا له رأسه وغسلوا له كل جسمه بالماء الدافئ. وهو لا يتذكر سنه آنذاك، وإن كانت أمه تقول له بأنه كان يبلغ السادسة عشرة ويقرب من السابعة عشرة، وأن من أسره قدر سنه بالثامنة عشرة، وهو ما أخبره به مؤخرا ب: "الغرب" مسيحي جنوي كان في المركب الذي أسر فيه قرب قرطاجنة، (و170ظ.) حيث كان [المصرح] يعمل رفقة صبيان آخرين، كان أصغرهم. وقد أسرته أربعة مراكب تركية. وبعد أن أدخلوه الإسلام ختنوه بعد سنة أو أكثر، ولم يفعلوا ذلك من قبل لكونه كان بالبحر مدة ثلاثة أشهر، وقضى سبعة في المرض باليابسة. وبعد اعتناقه الإسلام، شرع في القيام بالفرائض الإسلامية، وكان قد بلغ الخامسة عشرة. وقد واظب على تلك الفرائض منذ السن المذكورة، كالصيام والصلاة بالمسجد والوضوء وغير ذلك، لأن المسلمين غير ملزمين بها قبل تلك السن، كما أن السلطات القضائية لا تلزمهم بها، وأن القيام بها يتم بمحض إرادة الفرد دون إكراه.
سئل عما إذا كان يعتبر تلك الطقوس تفيد فاعلها، وعما إذا كان يرتاح للقيام بها، فأجاب بأنه كان يعتقد ذلك، وأنه كان يسعد بالتمسك بها، وذلك لكونه كان منذ أسره يسمع بأن المسلمين والأتراك والمسيحيين إخوان، وأنه إلى حدود سنته العشرين، لم يكن يستطيع التمييز بين الدين الإسلامي والمسيحية ليمكنه بناء على ذلك تفضيل هذا الدين على ذاك، وكان يؤمن فقط بما كان الأتراك والمغاربة يقولونه له، وأنه لذلك كان يعتقد بصحة الدين الإسلامي وطقوسه حتى سنه العشرين كما سبق ذكره، وأنه منذ تلك السن، وبعد أن أصبح على اتصال بالمسيحيين، تبين له مدى سوء الديانة الإسلامية، وسمو (و180و.)المسيحية، وأنه منذ ذلك الوقت وهو يرغب في الالتحاق بالبلاد المسيحية، ويعمل على ذلك، وأنه لما وصل راهب إلى بلاد المسلمين منذ خمس أو ست سنوات قصد افتداء الأسرى، اتصل به (فيسانت) المذكور بتطوان وأطلعه على الظروف التي أسر فيها، والتي اعتنق فيها الإسلام، وطلب منه تسليمه رسالة يطلع عليها المسيحيين الذين قد يحاولون اعتقاله أو إذايته في حالة مجيئه رفقة سيده إلى البلاد المسيحية، ولكي يتفادى كذلك الأذى في حالة تمكنه من الفرار من مركب سيده. وقد حرر له الراهب المذكور تلك الرسالة التي حملها معه مدة ثلاث أو أربع سنوات إلى أن تلاشت بسبب البلل. وأضاف أن الراهب المذكورسلم لشاب برتغالي أسلم وأصبح يسمى (علي) رسالة مماثلة، وأنه أسر خلال إقامته بالبلاد الإسلامية عددا من النصارى، يتذكر من بينهم اثنين كان يثق



فيهما أكثر، وهما "الرايس "(مانويل) الإيطالي الأسير، وكذا (Seijam Gaspar)، المنتمي للمناطق الشرقية، والذي كان يصنع السفن، وأنه كان يتحدث أكثر مع هذين الشخصين اللذين كانا يثنيان على الديانة المسيحية، وعلى بلادها. وأضاف أنه لا يتذكر غير ما صرح به في هذا الاعتراف، وأن المسيحيين الآخرين الذين يساعدون سيده في أسر النصارى هم: (Francisco de Freitas) وابنه، وسبعة أشخاص آخرين يبدو له أنهم(و.18ظ.)من الغرب، وأن الشخص المذكور عاد إلى بلاده. وطلب العفو والمغفرة عن كل ما ذكر. وحررته أنا،(Paulo da Costa).

سئل عما إذا سبق له أسر كرفيلات بالبحر كانت محملة قمحا موجها إلى مازيغن، وعما إذا كان سيده حاضرا وقتذاك. قال إنه منذ أربع سنوات، خرج من سلا على رأس خمسة مراكب فاستولوا على كرفيلا مسيحية محملة قمحا، يبدو له أنها كانت متجهة صوب مازيغن، وأن سيده لم يكن معه، وأنه كان مكرها من لدن القائد الذي كان يملك المركب الذي كان فيه، وأنه لم يكن يرأس الأسطول الذي كان يقوده مسلم يسمى (Papaso)، وأنهم أسروا في تلك الكرفيلا ثمانية مسيحيين.

سئل عما إذا كان قد أرغم صبيين منهم على اعتناق الإسلام، فأجاب بالنفي، وبأنهما لم يكونا تحت سلطته، وأن القائد هو الذي فعل ذلك. سئل عما إذا سبق له -وقد كان يرافق فقيها- أن جر ذاك الصبي من شعره بعد أن شاهده يوما يأكل مع المسيحيين، أجاب بأنه لم يسبق له أن فعل ذلك.

سئل عما إذا سبق له على إثر [جلب مركب] عبر نهر المعمورة أن سب مسيحيا كان يصلح شقوق السفن، ووصفه بالكلب لكونه أنكر معرفته بذلك، أجاب بأنهم التجأوا فعلا لذلك الشخص قصد إصلاح المركب، غير أنه لا يتذكر نعته له بذلك النعت. وحررته أنا، (Paulo da Costa).

أربعة إمضاءات



ببليوغرافيا مختصرة:

1 ـ المصادر

-H.de Castries et collaborateurs, **Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère Série.**

-**Dynastie sa'adienne, Portugal,** tomeIV,**P.Bas**, tomes:IV etV; **Angleterre**, tome 2ème **série, Filalienne, France**, tomes I,II,III.

-Père Dan, **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, Paris, 1649.

-Inquisiçao de Lisboa, processo, n° 8481.

2 ـ الدراسات

ـ حسن أميلي، **الجهاد البحري بمصب أبي رقراق في القرن السابع عشر**، رسالة جامعية مرقونة، ص411.

ـ أحمد بوشرب، "المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر" ب: **وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه**، الرباط، دار الأمان، 1987 صص90–104.

-L'étude incontournable de R.Coindreau, **Les corsaires de Salé**, Paris Société d'Editions Géographiques, maritimes etcoloniales, 1948, 237p.

-B.Bennassar, **Les Chrétiens d'Allah**, Paris,Perrin,1989,493 p.

-Ahmed Boucharb,"Les Marocains et la mer pendant le XVIème siècle" in: **Les Marocains et la mer**, Rabat, édit.Faculté des Lettres, Rabat, 1992,pp85-94.

-Hernandez Luis Albeto,ANAYA, "repercusiones del corso berberisco en Canarias durante el siglo XVII:cautivos y rengatos canarios"V° **coloquio de Historia Canario-americana**, Gran Canaria, 1982, pp.125-177.



Conception & Réalisation :



Impression : Editions OKAD

Dépôt légal : 914 / 1998